

الفصل الأول

وصف جزيرة العرب

أولاً: البنية الطبيعية

جغرافية جزيرة العرب

لا بد لفهم تاريخ أمة من الأمم من فهم بيئتها الطبيعية حيث أن البيئة من الأسس الهامة في تكوينها، فهي تؤثر في طباع السكان ونشاطهم، وتكوين أجسامهم، وتوجيه فعاليتهم. ونقصد هنا بالبيئة الطبيعية، الظروف الجغرافية، والجيولوجية والمناخية. ففي الوضع الجغرافي لجزيرة العرب يستوقفنا خلاف لدى الجغرافيين الأوائل في تعيين حدودها الشمالية قبل الإسلام كما يفهم من قول ياقوت الحموي: "قد اختلف في تحديدها. وإنما سميت جزيرة لأنها تقطع الفرات ودجلة ثم تقطع في البر..." (١).

والهمداني، وهو متقدم على من سواه، يقرر أن مجرى الفرات الأسفل حدها الشمالي

(١) الحموي (ياقوت) معجم البلدان - دار أحياء التراث العربي - بيروت ١٩٧٩ م مادة جزيرة يختصر هذا الكتاب في المرات القادمة إلى ياقوت معجم البلدان.

الشرقي، وشواطئ فلسطين على البحر المتوسط حدها الشمالي الغربي، حيث يقول:
"وإنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرافها
وصار منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر".

وذلك أن الفرات القافل الراجع من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين ثم انحط على
الجزيرة وسواد العراق^(١) حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة، وامتد البحر من
ذلك الموضع مغرباً محيطاً ببلاد العرب ومنعطفاً عليها، فأتى منها على سفوان وكاظمة،
ونفذ إلى القطيف وهجر، وأسياف (البحرين) وقطر وعمان والشحر، ومال عنه عنق إلى
حضر موت وناحية أبين وعدن ودهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد
فرسان وحكم والأشعرين وعك، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار وساحل المدينة
وساحل الطور، وخليج أيلة وساحل راية - كورة من كور مصر البحرية - حتى بلغ قلزم
مصر وخالط بلادها، وأقبل النيل من غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً
معارضاً للبحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ
بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى على صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها
من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي
أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق^(٢) .

أما الاصطخري ويؤيده ابن حوقل فقد استبعدا من التحديد المتقدم شبه جزيرة
سيناء، وعلا ذلك بقوليهما: ويتصل بأرض العرب بناحية أيلة برية تعرف بتيه بني إسرائيل
وهي برية، وإن كانت متصلة بديار العرب فليست من ديارهم وإنما هي برية من أرض
العمالة واليونانية، وأرض القبط، وليس للعرب بها ماء ولا مرعى، فلذلك لم ندخلها في
ديار العرب^(٣).

(١) القافل الراجع، وسواد العراق رستاق أي مخلاف، وسمي بذلك لشدة خضرته بالأشجار والغلال.

الهمداني: الصفة ص 57 حاشية. وينظر أيضاً ياقوت: معجم البلدان، مادة سواد.

(٢) الهمداني: الصفة ص 57 - 58.

(٣) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي) صورة الأرض مكتبة الحياة بيروت بلا تاريخ ص 29.
يختصر في المرات القادمة إلى ابن حوقل صورة الأرض. وينظر الاصطخري (إبراهيم بن محمد) المسالك
والممالك، تحقيق محمد جابر الحيني. القاهرة 1961 ص 20 يختصر في المرات القادمة إلى
الاصطخري: المسالك.

وحدد المقدسي جزيرة العرب بقوله: "أعلم أن بين أقاليم العرب غير المغرب بادية ذات مياه وغدران وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السيل خفية الطرق طيبة الهواء، ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء، ومن الناس من يعدها من الجزيرة وليست منها، ومنهم من يجزئها على الأقاليم ومنهم من يجعلها من الشام، وقد رأينا نحن أن نفرزها ونفرد صورتها^(١)".

وأضاف قائلاً: "وتخوم هذه البادية تأخذ من ويلة على مدائن قوم لوط، وتصعد إلى مآب ثم على تخوم عمان وأذرعات ورساتيق دمشق وتدمر وسلمية وأطراف حمص إلى بالس، ثم ترجع إلى الفرات، وتعطف على الرقة والرحبة والدالية إلى هيت والأنبار ثم على الحيرة والقادسية ومغارب البطائح ثم على سواد البصرة إلى عبادان، ومنهم من أضاف الشراة إليها. وأدخل مدنها فيها وهذا أصح، وليس في هذه البادية مدينة إلا تيماء^(٢)".

مما سلف يمكن القول إن هناك فرقاً بين السبب الذي سميت من أجله ديار العرب بالجزيرة، وبين الحد الجغرافي الحقيقي لديار العرب، وبما أنه لا يوجد فروق تضاريسية واضحة من جهة الشمال، فقد تسر على الجغرافيين العرب تحديد حدود ديار العرب اعتماداً على مظاهر السطح. (ينظر مصور رقم 1*)

ويمكن القول أيضاً إن عدم وجود الفواصل التضاريسية جعل العرب يختارون مدلولين في تحديد الجزيرة: هما المدلول السياسي فجزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس والروم، والمدلول العمراني إذ استبعد كل الجغرافيين معظم المناطق المعمورة في أطراف جزيرة العرب^(٣).

بل إن المقدسي استبعد في ذكره لبادية العرب بعض المدن الواقعة وسط تلك البادية. وعلى ذلك فإن بلاد العرب وأن كانت تحيط بها البحار من ثلاث جهات فقط وهي الشرق والغرب والجنوب، فإن نهر الفرات يحفها من الشمال الشرقي إلى الشمال منعطفاً عليها إلى مسافة من البحر المتوسط عند جند قنسرين حتى يصب في الخليج العربي عند الأبله^(٤).

(1) المقدسي (محمد بن أحمد) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ليدن - مطبعة بريل ص 248 يختصر في المرات القادمة إلى المقدسي: أحسن التقاسيم.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 252.

(3) غنيم (عبد الله يوسف) أقاليم جزيرة العرب - الكويت 1981 ص 23 يختصر في المرات القادمة إلى غنيم: أقاليم.

(4) الهمداني: الصفة ص 57 - 58 وينظر أيضا الخضري (محمد بك) محاضرات في تاريخ الأمم

أي يعد حداً طبيعياً شمالياً لها مما يمكن تسميتها جزيرة. (ينظر مصور رقم 1 - 2). وبناء على ذلك فإن العرب يدخلون في جزيرتهم كلاً من سورية ولبنان وفلسطين كما يتضح ذلك من تفسير ابن الكلبي عند ياقوت^(١) وغيره^(٢).

ولا يشك المستشرق السوفييتي باليايف أن بادية الشام كانت في عصر ما قبل الإسلام جزءاً من الجزيرة العربية، وأن الحدود السياسية بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانت مرسومة على نحو يبقى بادية الشام في حوزة سكانها الأصليين^(٣).

بعد هذا العرض نستطيع أن نرسم حدود الجزيرة العربية عند العرب بالقول يحدها من الشرق الخليج العربي وبحر عمان ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الشمال الفرات.

تختلف بلاد العرب من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها، فبعضها تغطيه كثبان الرمل وبعضها تكسوه الصخور وبعضها منخفض وبعضها مرتفع، وتمتد على طول ساحل البحر الأحمر سلسلة جبال السراة^(٤)، وتمتد من وسط الجزيرة سلسلتا جبال أجا وسلمى جبلي شمر^(٥).

وفيها الحرات والدهناء والنفوذ^(٦). ينظر مصور (1 - 2)

فالحره وهي أرض من الحجارة الرملية يعلو سطحها حمم البراكين القديمة الخفائية المنخرة^(٧)، والدهناء أرض رملية حمراء تمتد من النفوذ شمالاً إلى الربع الخالي جنوباً...

الإسلامية المكتبة التجارية - مصر ط3، ج1 ص7 يختصر إلى خضري: تاريخ الأمم.

(1) ياقوت: معجم البلدان مادة جزيرة العرب.

(2) القلقشندي: (أبي العباس أحمد صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - وزارة الثقافة المؤسسة المصرية العامة ج5 ص5 يختصر إلى القلقشندي صبح الأعشى.

(3) بلياييف، ي. أم. العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى ترجمة أنيس فريحة الدار المتحدة للنشر بيروت 1973 ص53 يختصر إلى بلياييف العرب والإسلام.

(4) السراة أعلى كل شيء. وإنما سمي السراة لعلوه. ياقوت: معجم البلدان - مادة سراة.

(5) ياقوت معجم البلدان مادة أجا وسلمى.

(6) حتي: (فيليب) تاريخ العرب - دار غندور ط/ 7 / 1986 ص 42 - 43 يختصر إلى حتي: تاريخ العرب.

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة حرة وينظر حتي: تاريخ العرب ص 43.

وقد تميز الجانب الغربي من الدهناء باسم الأحقاف وهي كثبان مستطيلة من الرمال^(٤٣). والنفوذ وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء أو محمرة^(٤٤).

والجدير بالملاحظة والذكر أن العرب فرقوا في تقسيمهم لجزيرة العرب بين الأقسام الإدارية، والنواحي المتصلة بها، وبين الأقاليم المورفولوجية^(٤٥) القائمة على أساس طبيعي. فالأقسام الطبيعية لجزيرة العرب عند الجغرافيين اليونان والرومان القدماء تختلف عنها لدى غيرهم، فقد قسمها الأولون انطلاقاً من الوضع السياسي لبلاد العرب في القرن الأول للميلاد إلى أقسام ثلاثة:

1. بلاد العرب السعيدة اليمن.

2. القسم الصخري في الشمال. جنوب غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط.

3. القسم الصحراوي حيث القبائل الغالبة عليها حياة البداوة^(٤٦).

ويتفق هذا التقسيم مع الناحية السياسية التي كانت عليها البلاد العربية في القرن الأول للميلاد فالقسم الأول مستقل لاسلطان عليه والقسم الثاني قريب من الرومان ثم فيما بعد سيطروا عليه وأصبح تحت نفوذهم والقسم الثالث هو البادية الممتدة إلى نهر الفرات^(٤٧).

(1) ياقوت: معجم البلدان مادة أحقاف ودهناء وينظر حتي: تاريخ العرب ص 42 - 43.

(2) حتي: تاريخ العرب ص 42.

(3) مورفولوجية: علم الهيئة أو الشكل وكذلك البنية وتطورها الذي يؤثر على الهيئة أو الشكل. توني (يوسف) معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي 1964 ص 505 يختصر إلى توني: معجم المصطلحات الجغرافية.

(4) زيدان: العرب قبل الإسلام ص 39، علي: جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام مطبعة التفيض 1319 ح 1 ص 117 يختصر إلى جواد: تاريخ العرب، حسن (إبراهيم حسن) تاريخ الإسلام السياسي ط 6، 1961 مكتبة النهضة المصرية ح 1 ص 24 يختصر إلى حسن تاريخ الإسلام، مروة (حسين) النزعات المادية، دار الفارابي بيروت 1978 ص 188 يختصر إلى مروة نزعات، نافع (محمد مبروك) عصر ما قبل الإسلام ط 1952 مطبعة السعادة مصر 18 - 19 يختصر إلى نافع عصر ما قبل الإسلام، هبو (أحمد رحيم) تاريخ العرب قبل الإسلام 1979 - 1980 ص 53 - 54 يختصر إلى هبو: تاريخ العرب قبل الإسلام، جميلي (رشيد) محاضرات في تاريخ العرب ط 1 و 1972 بيروت لبنان ص 42 - 43 يختصر إلى جميل: محاضرات.

(5) جواد: تاريخ العرب ح 1 ص 118، جواد: المفصل 1/163.

أما جغرافيو العرب فقد قسموا بلادهم إلى خمسة أقسام كبرى وهي: الحجاز وتهامة واليمن والعروض ونجد (□).

وزاد ابن حوقل بادية العراق وبادية الجزيرة بين دجلة والفرات وبادية الشام (ب).

الحجاز: ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة (ث) الممتدة من الشام إلى نجران في اليمن، سمي حجازاً لأنه يحجز بين الغور (ب) وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر (س) فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حاجر بينهما أو لكثرة الحرار فيه واحتجاز أهله من العدو فهو من الفعل حجز، والحجز. الفصل بين الشيئين، والحجاز الاسم (ش).

قسم البكري الحجاز إلى حجازين، الحجاز الأسود وحجاز المدينة (ث)، ويبدو أن المقصود من هذا التقسيم هو التفريق بين جبال السراة الجنوبية أو الحجاز الجنوبي وبين الحجاز الشمالي، ولهذا التقسيم من الوجهة الجغرافية دلالة مورفولوجية، إذ يعتبر كل قسم

(1) الهمداني: الصفة ص58، البكري (أبي عبيد) معجم ما استعجم تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت ح1 ص7 يختصر إلى البكري: معجم ما استعجم، أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمود) تقويم البلدان دار الطباعة السلطانية باريس 184 ص78 - 80 يختصر إلى أبو الفدا تقويم البلدان. ياقوت: معجم البلدان مادة جزيرة ومادة حجاز القلقشندي: (أبي العباس أحمد بن علي) قلاند الجمال في التعريف بقبائل عرب الزمان تحقيق إبراهيم الأبياري ط1، 1963 دار الكتب الحديثة القاهرة ص18 يختصر إلى القلقشندي: قلاند الجمال، الوسي (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب صححه محمد بهجة الأثري، دار الشرق العربي - بيروت - لبنان ح1 ص178 يختصر إلى الوسي: بلوغ الأرب، جواد: تاريخ العرب ح1 ص128 خضري: تاريخ الأمم الإسلامية ص10 - 11 غنيم: أقاليم ص27 - 28 عوض الله (أحمد أبو الفضل) مكة في عصر ما قبل الإسلام ط2 1981 مطبوعات دار الملك عبد العزيز ص17 يختصر إلى عوض الله: مكة، حسن: تاريخ الإسلام ص4 - 5 يافع عصر ما قبل الإسلام ص18 - 19.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض ص29، القلقشندي: صبح الأعشى ح4 ص245.

(3) ياقوت: معجم البلدان مادة سراة.

(4) الغور ما تداخل وما هبط وغور، كل شيء قعره. ياقوت: معجم البلدان مادة غور .

(5) الهمداني: الصفة ص58، ياقوت معجم البلدان مادة حجاز، حسن: تاريخ الإسلام ص4 جميلي: محاضرات في تاريخ العرب ص43.

(6) لسان العرب: مادة حجز.

(7) البكري، معجم ما استعجم ح1 ص13.

منهما إقليماً مورفولوجياً له خصائصه المتميزة من حيث الارتفاع والمناخ والحياة النباتية^(١). وقد قسمه الجغرافيون المحدثون إلى قسمين^(٢): سِراة عسير وهي المرتفعات الجنوبية، وسِراة الحجاز وتمتد شمال المرتفعات المتقدمة إلا أنها أقل ارتفاعاً من مرتفعات عسير. فالسِراة هي العمود الفقري لجزيرة العرب^(٣).

تهامة: وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن، وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الرياح، وقيل سميت بذلك لتغير هوائها، وقيل أن التهمة هي الأرض المنصوبة نحو البحر^(٤). ولا انخفاض أرض تهامة سميت بالغور^(٥) "فصار ما خلف ذلك الجبل في غربية إلى أسياف البحر من بلاد الأشعرين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها، وغار من أرضها الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله^(٦)".

وأكثر أجزاء تهامة رملي شديد الحرارة قليل النباتات وتقع فيه كثير من المرافق العربية مثل جدة وينبع والجار والحديدة والمخا في بلاد اليمن. ويقع في شمال هذه المنطقة ميناء صغيرة يعرف باسم الوجه، وهو عبارة عن بلدة صغيرة تشتمل على عدد قليل من البيوت الحجرية^(٧). وجعل الهمداني عدن من مدن تهامة الجنوبية^(٨)، وهذا يعني أن إقليم تهامة عنده يبدأ من ساحل عدن، ويمتد غربي جبال الحجاز إلى أطراف بوادي الشام.

نجد: "النجد قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف وجمعه نجاد، ولا يكون ذلك إلا قفاً أو صلابة من الأرض في ارتفاع من الجبل معترضاً بين يديك يرد طرفك عما

(1) غنيم: أقاليم ص 36.

(2) غنيم: أقاليم ص 36.

(3) شريف (أحمد إبراهيم) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - دار الفكر العربي - مطبعة مخيمر ص 13 يختصر إلى شريف مكة والمدينة.

(4) ياقوت: معجم البلدان مادة تهامة.

(5) ياقوت: معجم البلدان مادة غور، البكري: معجم ما استعجم ج 1 ص 7.

(6) الهمداني: الصفة 58.

(7) عوض الله: مكة ص 18.

(8) الهمداني: الصفة 70.

وراء^(١)، وليس بالشديد الارتفاع، وهو عدة نجوم: نجد برق واد باليمامة ونجد خال ونجد
عفر ونجد كبكب ونجد مربع^(٢).

ويمتد إقليم نجد شرقي الحجاز أي الناحية التي بين الحجاز والعراق^(٣) والحد بين
الإقليمين ليس واضحاً في الكتابات العربية، فالهمداني يقول:

”فالعرب تسميه نجداً وجلساً وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كله“^(٤).

وأما البكري فيقول: ”وأما نجد فما بين جرش إلى سواد الكوفة“. وآخر حدوده مما يلي
المغرب الحجازان: حجاز الأسود وحجاز المدينة، والحجاز الأسود وسراة شنوءة، ومن قبل المشرق
بحر فارس ما بين عمان إلى بطيحة البصرة، ومن قبل يمين القبلية الشامي: الحزن حزن
الكوفة، ومن العذيب إلى الثعلبية إلى قلعة بني يربوع بن مالك من يسار طريق المصعد إلى مكة،
ومن يسار القبلية اليمني ما بين عمل اليمن إلى بطيحة البصرة ونجد كلها من عمل اليمامة^(٥).

ويطلق العرب على الأجزاء الشرقية المنخفضة من نجد اسم السافلة، أما المناطق
الغربية فيطلقون عليها اسم العالية أو عالية نجد^(٦).

العروض: وهو الشيء المعترض والعرض الجانب^(٧) وهو يشمل اليمامة والبحرين^(٨)،
سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق.

أغلب أرض العروض صحارى وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية على ساحل

(1) ياقوت: معجم البلدان مادة نجد.

(2) ياقوت: معجم البلدان مادة نجد.

(3) الألويسي: بلوغ الأرب ح 1 ص 187.

(4) الهمداني: الصفة ص 59.

(5) البكري: معجم ما استعجم ح 1 ص 13.

(6) ياقوت: معجم البلدان مادة نجد لعدة (الحسن بن عبد الله الأصفهاني)، بلاد العرب تحقيق حمد
الجاسر وصالح العلمي الرياض 1968 ص 383 يختصر إلى بلاد العرب جواد: تاريخ العرب ح 1 ص 147
غنيم: أقاليم ص 50.

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة عروض

(8) الهمداني: الصفة ص 59، ياقوت معجم البلدان مادة عروض، ألويسي: بلوغ الأرب ح 1 ص 187 جواد:
تاريخ العرب ح 1 ص 139.

البحر^(١) تشمل العروض اليوم البحرين والأحساء وقطر واليمامة.

اليمن: القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية عند جغرافي العرب هو القسم الجنوبي منها أي بلاد اليمن، كانت تطلق اليمن في النصوص العربية الجنوبية على منطقة صغيرة بالقياس إلى التقسيم العربي المتأخر إذ كانت تذكر إلى جانب مناطق سبأ وذي ريدان وحضرموت وغيرهما^(٢).

أما اليمن عند علماء الجغرافية المسلمين فهي منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض^(٣) "اليمن ما اشتمل عليه حدودها بين عمان إلى نجران ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشحر حتى يجتاز عمان فينقطع من بينونة، وبينونة بين عمان والبحرين وليست بينونة من اليمن، وقيل حد اليمن م وراء تثليث وما ساقبها إلى صنعاء، وما قاربها إلى حضرموت والشحر، وعمان إلى عدن أبين وما يلي ذلك من التهائم والنجود، واليمن يجمع ذلك كله....."^(٤).

وقال الهمداني: "سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة فيألي حدود الهجيرة وتثليث وأنهار جرش وكتنة منحدرًا في السراة على شعف عنز إلى تهامة على أم جحدم إلى البحر حذاء جبل يقال له كد مل بالقرب من حمضة وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن من بطن تهامة^(٥)".

فاليمن والخير والبركة وهي حضرموت وعمان وما بينها وفيه التهائم والنجد^(٦).

واليمن من "قولهم تيامن الناس فسموا اليمن فيه، نظرًا لأن الكعبة مربعة فلا يمين ولا يسار فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين"^(٧).

(١) جواد: تاريخ العرب ج ١ ص ١٣٩

(٢) جواد: اريخ العرب ج ١ ص ١٣٥ عوض الله،: مكة ص ٢٦، عاقل (نبيه) تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ١٩٨٠ جامعة دمشق ص ٩٤ يختصر إلى عاقل: تاريخ العرب.

(٣) عوض الله: مكة ص ٢٦

(٤) ياقوت: معجم البلدان مادة يمن.

(٥) الهمداني: الصفة ص ٦٥، ياقوت: معجم البلدان مادة يمن.

(٦) البكري: معجم ما استعجم ج ١ ص ٩.

(٧) الخصري: تاريخ الأمم ج ١ ص ١١

فاليمن من اليمن مقابل الشمال (الشام) وذكرها القرآن الكريم وأشار إلى ما كانت عليه من حضارة وعمران بقوله تعالى: " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم، بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خحد وأثل، وشيء من سدود قليل^(١٤) "، والجدير بالذكر أن للجزيرة العربية التي تقع بين آسيا وأفريقيا من الاتساع والصفات المميزة، والخصائص ما يجعلها جديرة بأن تكون قارة لوحدها، فرغم أنها جزء من آسيا فهي تتصل بأفريقيا عن طريق صحراء سيناء، وفي الماضي، وقبل أن يشق البحر الأحمر مجراه فيعزل آسيا عن أفريقيا كان القسم الغربي من جزيرة العرب جزءاً من الأرض الأفريقية، وحتى اليوم نلاحظ أن النصف الجنوبي من القسم الغربي من الجزيرة يشترك في كثير من الصفات مع مقاطعات أفريقيا الشرقية كالصومال والحبشة وهو أقرب إلى هذه الأصقاع الأفريقية منه إلى القسم الشمالي من الجزيرة أو بقية أصقاع آسيا في كثير من الخصائص، هذا ونرى من جهة أخرى أن القسم الشمالي من الجزيرة يتشابه إلى حد كبير مع الأقسام العربية في آسيا، وأن مرتفعات عمان تشابه سلاسل إيران الجبلية^(١٥).

تبلغ مساحة الجزيرة العربية، حدود ثلاثة ملايين كيلو متر مربع تقريباً^(١٦) وهي عبارة عن هضبة متوسطة الارتفاع، ويمكن تقسيمها إلى المناطق التضاريسية التالية:

أولاً: المنطقة الغربية وتمتد على طول البحر الأحمر وتشمل الحفرة والمنطقة الساحلية المنخفضة والجبال والهضاب الناهضة.

فالحفرة هي التي تغطيها مياه البحر الأحمر، والمنطقة الساحلية المنخفضة تهامة ذات المناخ الحار الضار بالصحة^(١٧).

وقد سكن تهامة في الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الإسلام قبائل خولان وحمدان

(١) ياقوت: معجم البلدان مادة يمن

(٢) سورة سبأ: الآيتان ١٥ - ١٦

(٣) الأصمعي (عبد الملك بن قريش) تاريخ العرب قبل الإسلام تحقيق محمد حسن آل ياسين، المكتبة العلمية ط١ مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٩ ص (س ك) يختصر إلى الأصمعي: تاريخ العرب قبل الإسلام. وينظر دلو (برهان الدين) جزيرة العرب قبل الإسلام - الفارابي ١٩٨٩ ح ١ ص ٢٧ يختصر إلى دلو (جزيرة العرب).

(٤) ياقوت: معجم البلدان مادة تهامة، لسان العرب: مادة تهامة: تاج العروس مادة تهامة

وعك والأشعر والحكم وغيرها^(نح).

تتحدّر هذه الهضبة انحدارين أحدهما نحو الغرب والآخر نحو الشرق^(بي).

يبدأ الانحداران بسلسلة جبال السراة التي تمتد على موازاة البحر الأحمر في غربي الجزيرة في الشمال بجبال مدين وتشمل جبال الحجاز وعسير وهضبة اليمن وهي نهاية سلسلة الجبال الغربية، تتخللها وديان عميقة هي بمثابة منافذ ينفذ منها المسافرون من الساحل إلى داخل الجزيرة العربية. سكن هذه المنطقة هذيل في الحجاز^(ث) وحمير والأبناء في اليمن^(بي).

ثانياً: المنطقة الجنوبية وتشمل حضرموت ومهرة وظفار تمتد واجهتها على خليج عدن، وبحر العرب، وتكثر في هذه المنطقة الوديان وسكنتها قبائل كنده والصدف، وبطلون من السكون وهمدان وغيرها^(سه).

ثالثاً: المنطقة الجنوبية الشرقية وتشمل منطقة عمان وعمودها الفقري الجبل الأخضر وما حوله من مرتفعات حيث يحيط بنجد عمان حزام متصل من الواحات عند سفوح الجبال وعلى كلا جانبي الساحل البحري وحافة الصحراء العربية الكبرى^(شم). ويخترق المرتفعات أودية بعضها جاف وبعضها الآخر خصيب. وقد كانت عمان في نظر الجغرافيين العرب جزءاً من المنطقة الجنوبية التي تشمل اليمن وحضرموت ومهرة وظفار وعمان^(ف).

أغلب سكانها من قبائل الأزد وبها من غيرهم بشر كثير في البوادي، وأناس آخرون

(1) كحالة (عمر رضا) معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية دمشق 1949 م ج1 ص30 -31-286.

365-ح3 ص1224 يختصر إلى كحالة: معجم قبائل العرب.

(2) عاقل: تاريخ العرب ص16

(3) قال أمية بن أبي عائذ الهذلي:

هذيل حموا قلب الحجاز وإنما حجاز هذيل يفرع الناس من عل

(4) الهمداني: الصفحة ص61. وأمّية هذا أحد بني عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ومداهم وله في عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز غرر القصائد.

(5) الهمداني: الصفحة ص168

(6) بلياييف: العرب والإسلام ص63

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة جزيرة ومادة يمن، أبو الفدا: تقويم البلدان ص80

رابعاً: المنطقة الشرقية وتشمل العروض واليمامة والبحرين وما والاها^(١٥).

وهي أكثر أجزاء الجزيرة العربية انخفاضاً ذكر ياقوت أن اليمامة كانت أحسن بلاد الله أرضاً ومن أكثرها خيراً وشجراً ونخلاً، غزيرة المياه، ذات عيون وآبار ومزارع ومزارع، من أوديتها وادي حنيفة^(١٦)، ومن أقسام العروض شبه جزيرة قطر، التي تمتد من عمان إلى حدود الأحساء - سميت الأحساء قديماً هجر والبحرين^(١٧).

قال ياقوت نقلاً عن أبي منصور: "في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية يقال لها قطر^(١٨)، وبلاد البحرين هي وتشمل المنطقة الممتدة بين البصرة وعمان^(١٩)."

كان ينزل البحرين وباديتها قبائل عبد القيس وبكر بن وائل وتميم وبعض العجم. وكانت جماعات من هذه القبائل تدين بالوثنية وجماعات أخرى يهود ونصارى وجاليات فارسية يعبد أفرادها النار^(٢٠).

خامساً: المنطقة الداخلية وتشمل نجد والصحاري وهي أوسع أجزاء الجزيرة العربية تمييزاً لها عن الغور أو تهامة وتعني الأرض المنخفضة^(٢١).

أطلق العرب على الجزء المرتفع لهضبة نجد مما يلي الحجاز اسم العالية وعلى الجزء المنخفض مما يلي العراق اسم السافلة، في حين سموا شرقيها إلى اليمامة الوشوم، وشمالها إلى جبل طيء القصيم وهو عندهم الرمل الذي ينبت الغضى - شجر من الأثل -

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 87

(2) ياقوت: معجم البلدان مادة عروض

(3) ياقوت: مادة عروض، ياقوت: مادة يمامة

(4) وهبة (حافظ) جزيرة العرب في القرن العشرين - القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

1967 ص 62 يختصر إلى وهبة: جزيرة العرب.

(5) ياقوت مادة قطر

(6) ياقوت: معجم البلدان مادة بحرين

(7) البلاذري (أبي الحسن) فتوح البلدان - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1978 ص 89 - 90 - 91

يختصر إلى البلاذري فتوح البلدان.

(8) ياقوت: معجم البلدان مادة نجد.

وإليه ينسب أهل نجد فيسمون أهل الغضى لكثرة^(١).

من القبائل التي كانت تنزل أواسط الجزيرة في فترة ما قبل الإسلام طيء وسليم وهوازن وعامر بن صعصعة وغيرها^(٢).

أما الصحارى فهي أجزاء كثيرة من أراضي الجزيرة التي تستحيل عندما تسقط عليها الأمطار الغزيرة إلى سهوب تصلح للمراعي مدة من الزمن^(٣).

وصحارى الجزيرة هي: (ينظر مصور رقم (2))

1- الربع الخالي: ويطلق عليها اسم الصحراء العربية الكبرى: وفي الوقت ذاته سمي أهل كل قطر ما يليهم اسماً خاصاً فطرفها الغربي صهيد والشرقي وبار، والشمالى بيرين، والذي يمتد شمال حضرموت وشرقيها الأحقاف^(٤).

2- الدهناء أو النفوذ الصغرى وتعنى الفلاة كثيرة الكلاً ليس في بلاد العرب مربع مثلاً، وإذا أخصبت ربت العرب جمعاء^(٥)، ففيها ينمو العشب كما تنمو الشجيرات القصيرة على متون التلال الرملية مما يجعله مرعى سائغاً لدى البدو القاطنين هناك^(٦).

ومن الطبيعي أن تحتوي الدهناء على مناطق لا تصلح لرعي الماشية بسبب انعدام الماء^(٧)، وقد أشير إلى الدهناء في بيت شعر للأعشى بقوله^(٨):

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويخرجن من دارين بجر الحقائق

(1) الأصمعي (عبد الملك بن قريش) النبات والشجر، باعتناء هفند - المطبعة الكاثوليكية بيروت 1980

ص 31 يختصر إلى الأصمعي: النبات والشجر.

(2) كحالة: معجم قبائل العرب 2/ 543 - 699 - 708 والجزء 3/ 1231

(3) بليبييف: العرب والإسلام ص 66 - 67

(4) ياقوت: معجم البلدان مادة أحقاف - مادة صهيد - بيرين - وبار.

(5) لسان العرب مادة دهن.

(6) بليبييف: العرب والإسلام ص 75

(7) بليبييف: العرب والإسلام ص 71

(8) الأعشى: هو ميمون بن قيس ولد في قرية منفوحة من اليمامة في قومه بني قيس بن ثعلبة وهم بطن

من بطون بكر بن وائل بن ربيعة.

ديوان الأعشى: دار صادر بيروت ص 5.

3- صحراء النفوذ الكبرى: وكانت تعرف قديماً باسم عالج^(١) تكسو وجهها شجيرات، وأحياناً أشجار، فإذا سقط المطر تحول أديم الأرض إلى مراعى خضر تسرح فيها الإبل والأغنام وكان ينزل في هذه الصحراء قبائل تميم وضبة^(٢).

إذا الجزيرة العربية عبارة عن هضبة تغلب عليها صفة الصحارى والدارات باستثناء اليمن وعمان وبعض الوديان الواقعة في سلسلة الجبال الغربية وفي نجد والأحساء. وتستحيل أراضيها الصحراوية إلى سهوب تصلح للمراعى فترة من الزمن إذا هطلت عليها الأمطار الغزيرة^(٣).

- المناخ

في مجال الوضع المناخي لجزيرة العرب يرجع الأمر إلى وضعها الجغرافي فالمناخ مختلف باختلاف الأقسام الجغرافية، وبما أن معظم أراضيها بادية، كان الغالب عليها الجفاف، وعدم انتظام مواسم الأمطار مع عدم الاحتفاظ بمياه الأمطار في مجارى منتظمة ودائمة، وشدة الحرارة بوجه عام، وعلى الرغم من أحاطه البحار بها من ثلاث جهات، فإن الجو البحري لم يخفف من حدة الحرارة فيها، أو يتغلب على جفافها، فالأبخرة المتصاعدة من البحر لا تكاد تصل إلى أواسط الجزيرة العربية، إذ أن الرياح السمامت الشديدة الحر تقاومها مقاومة شديدة، وتمنعها في الغالب من الوصول إلى أواسط الجزيرة^(٤). والحرارة في الجزيرة العربية عرضة للتقلبات، ليس بين الصيف والشتاء وحسب، بل وفي اليوم الواحد بين النهار والليل، وكان الرحالة الغربيون يتذمرون من برد الليل أكثر مما كانوا يشكون من حر النهار^(٥).

وفي الشتاء تنخفض درجة الحرارة، ويتساقط الثلج ويتجمد الماء في جبل غزوان الذي تقع عليه مدينة الطائف، وصنعاء في اليمن^(٦).

ولعل برد الليل في شهري كانون الأول وكانون الثاني ظاهرة طبيعية يشكو منها

(1) ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني) الصبح المنير في شعر أبي بصير طبع في مطبعة دولف هلهزوسن - فيينا 1927 ص 317 يختصر إلى ثعلب: الصبح المنير.

(2) كحالة: معجم قبائل العرب 1/126 - 2/661.

(3) بليبييف: العرب والإسلام ص 66 - 67.

(4) حتي: تاريخ العرب ص 43 وشريف: مكة والمدينة ص 9.

(5) بليبييف العرب والإسلام ص 76 - 77.

(6) ياقوت: معجم البلدان، مادة طائف، أبو الفدا: تقويم البلدان ص 95.

الرعاة إذا اقتحموا إلى الوقود ليلاً حيث تنخفض الحرارة إلى ثماني درجات وتبقى على هذا المستوى أسبوعاً كاملاً^(١).

تهب على الجزيرة العربية أنواع مختلفة من الرياح، عامة وموسمية ومحلية، باردة وحارة، ممطرة وجافة، وقد نسب العرب أمهات الرياح إلى الجهات الأربع^(٢) وكل ربح من هذه الرياح انحرفت فوقعت بين ريحين فهي نكباء^(٣).

"رياح المشرق القبول وهي الصبا، ويقابلها من المغرب الدبور، والجنوب تهب من اليمن، ويقابلها الشمال من قصد الشام ويسمى حيز الجنوب التيمنا، وحيز الشمال الجر بياء، وماهب بين الجنوب والقبول النكباء وما بين الجنوب والدبور الداجن، وما بين الشمال والدبور وهي مقابلة النكباء أريب، وما بين الشمال والقبول في مقابلة الداجن الحرجف، وبين القبول والنكباء، الباذخش وهي الرياح الميتة، وبين الداجن والدبور..... وبين الدبور والآيب الصاروف، وبين الشمال والحرجف الرياح القصيم اثنا عشرة ريحاً لاثني عشر برجاً^(٤)".

فالرياح الشمالية باردة تقشع الغيم، وتذهب بالحياة والخصب^(٥) تهب على الحجاز وشمال الجزيرة بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج، وتهب رياح شمالية غربية قادمة من البحر المتوسط تجلب المطر إلى الحجاز وأواسط نجد الشمالية، وإلى بلاد عمان يسميها العرب بالدبور (الغربية) لأنها في زعمهم تأتي من المغرب من دبر الكعبة وتعرف بالذاريات والمعصرات^(٦). وتهب على أطراف جزيرة العرب الجنوبية رياح موسمية جنوبية غربية قادمة من شرقي إفريقية تيمنون بها وجعلوها علامة للخصب والخير،

(١) بليبايف: العرب والإسلام ص 77

(٢) ابن قتيبة الدينوري (أحمد محمد عبد الله بن مسلم) الأنواء - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيد، آباد الدكن والهند 1956 ص 158 يختصر إلى الدينوري الأنواء

(٣) الدينوري: الأنواء ص 158 ابن سيدة: (أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المخصص - المطبعة الكبرى الأميرية - بيولاقي مصر 1316 هو مطبعة المكتب التجاري بيروت بلا تاريخ 9 ص 84 يختصر إلى ابن سيدة: المخصص.

(٤) الهمداني: الصفة ص 300

(٥) الدينوري: الأنواء ص 162

(٦) الألويسي: بلوغ الأرب ج 3 ص 360 - 361

وهي محملة بالسحب الآتية من المحيط تسقط مطراً غزيراً فوق الهضبة اليمنية وعلى ظفار ومهرة يغيثهم وينفعهم^(١).

وتهب من المشرق رياح تحبها العرب، وتدعوها الصبا لرققتها ويقال لها أيضاً القبول^(٢) وهي ريح طيبة مقبولة، والنفس تصبو إليها، وأكثر هبوبها على إقليم نجد، وأحبها العرب لأنها تجيء بالسحاب والمطر، وفيها الري والخصب، وقد مدح العرب ريح الصبا، وتغزلوا بها كقول امرؤ القيس^(٣):

إذا قامتَا تضووع المسك منهما نسيم الصبا جاءت برياً القرفض^(٤)
أما رياح السموم فهي اللهب الذي تنفثه الصحراء العربية، وما أن تهب حتى تجف مصادر المياه وتيبس القرب التي يجمع فيها البدوي ماء شربه وهي حارة وباردة، فالسعاد والسهم والبارح والحرور والمعمعان حارة والإصرار والحرجف والصر والحريف والشعان وحارم والعربة باردة^(٥).

تشغل هذه الرياح باستثناء ريح السموم التي تؤذي الإنسان والحيوان والنبات دوراً هاماً نافعاً حيث ترتبط حياة سكان البوادي العربية بالمطر ارتباطاً وثيقاً، حتى لقد سموه غيثاً وربما حبس الماء سنوات حتى يضطر السكان إلى الارتحال، ويطلقون على هذه السنوات الجافة الرمادية أو السنوات الشيب لأن لون سطح السهوب يستحيل إلى لون رمادي أو أشيب^(٦). ويحدثنا الاصبهاني أن بطوناً "من خزاعة خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجذبوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوارق خلفهم وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته^(٧)" فرجع فريق منهم إلى موطنهم، واستمرت قلة في هجرتها بحثاً

(١) الدينوري: الأنواء ص 164 - 165

(٢) ابن سيدة: المخصص ح 9 ص 159

(٣) امرؤ القيس بن محمد الكندي ولد في أوائل القرن السادس في نجد كان ذكياً متوقداً الفهم فلما قرع عر أخذ يقول الشعر، ديوان امرؤ القيس - دار صادر - بيروت ص 5 - 8 وينظر زوزني: شرح المعلقات السبع دار صادر بيروت ص 10 يختصر إلى زوزني شرح المعلقات.

(٤) ضاع المسك تضووع إذا انتشرت رائحته، الريا الرائحة الطيبة، زوزني: شرح المعلقات ص 10 - حاشية.

(٥) ابن سيدة: المخصص ح 9 ص 85، دلو: جزيرة العرب قبل الإسلام ج 1 ص 41

(٦) بلياييف: العرب والإسلام ص 80

(٧) الاصبهاني: الأغاني 14 / 154

عن الكلاً والماء.

وفي بعض الأحيان يسقط المطر وأبلاً فيشكل سيولاً تغمر السهول وتملأ الوهاد، وتجرف مضارب البدو، وتأخذ معها أنعامهم، وتقتل منهم خلقاً كثيراً فما هو أمر القيس يصف وصفاً دقيقاً مثل هذه السيول الجارفة بقوله (ن):

فأضحى يسح الماء هول كثيفة	يكب على الأذقان دوح الكنهيل ^(ب)
ومر على القنان من نضيانه	فأنزل منه العصم من كل منزل ^(ج)
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	ولا إطمأ إلا مشيداً بجندل ^(د)
كان تبيراً في عرابين وبله	كبير أناس في بجاد مزمل ^(هـ)
كان ذرى رأسي المجير عدوة	من السيل والإعشاء فلكة مغزل ^(و)
كان مكاكي الجواء غدية	صبحن سلافاً من رحيق مفضل ^(ز)
كان السباع فيه عزقي عشية	بأرجائه القصوى أنابيش عنصل ^(ح)

وأغلب الظن أن هذا الوصف غير مبالغ فيه، ألم يجرف أحد هذه السيول سد مأرب المشهور كما حدثنا القرآن الكريم بقوله:

(1) زوزني: شرح المعلقات ص 39-40-41

(2) الكب إلقاء الشيء على وجهه - الذقن مجتمع اللحيين والجمع الأذقان الدوح جمع مفرد دوحة الشجرة العظيمة الكنهيل ضرب من شجر البادية زوزني: شرح المعلقات ص 39 حاشية.

(3) القنان اسم جبل بني أسد، النفيان ما يتطاير من قطر المطر وقطر الدلو ومن الرمل عن بياض من الأوعل وغيرها، المنزل موضع الإنزال زوزني شرح المعلقات ص 39 حاشية.

(4) تيماء قرية عادية في بلاد العرب، الاطم: القصر - مشيد من الشيد الجص والشيد الرفع وعلو البنيان - الجندل الصخر - زوزني: شرح المعلقات ص 39 حاشية.

(5) العرين الأنف استعيرت لأوائل المطر - البجاد كساء مخطط - التزميل التلصيف بالثياب - زوزني: شرح المعلقات ص 40 حاشية.

(6) المجير أكمة يعينها - زوزني: شرح المعلقات ص 4 حاشية

(7) إلقاء ضرب من الطير - الجواء الوادي - سلاف أجود الخمر زوزني: شرح المعلقات ص 47 حاشية.

(8) أنابيش أصول البنت العنصل البصل البري زوزني: شرح المعلقات ص 41 حاشية.

"فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتي أكل خمض
وأثل وشيء من سدر قليل (١٦)".

وفي كتب الأخبار ذكر لكثير من هذه السيول منها سيل وادي مكة الذي كسا ما
بين الجبلين (١٧).

(١) سورة سبأ آية ١٦

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ١٦٦ - ١٦٧، الفاسي (أبي الطيب تقي الدين بن أحمد بن علي) شفاء الغرام
تحقيق عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي ط١ ١٩٨٥ ج٢ ص ٤١٥ يختصر لفاس شفاء الغرام
البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٥

– المياه

الجزيرة العربية على العموم من البلاد الفقيرة بالمياه لغلبة الجفاف عليها، فلا نستطيع أن نجد فيها نهراً واحداً دائماً الجريان يصب ماؤه في البحر، وليس في أنهارها الصغيرة ما يصلح للملاحة وقد عوضت عن الأنهار بشبكة من الأودية تجري فيها السيول حين تفيض مياه الأمطار، فالوادي في أكثر الأحيان كل مفرج بين جبال وآكام وتلال يكون مسلكاً للسيل أو منفذاً^(١).

ففي الحجاز وادي إضم وهو واد عظيم تغززه أودية كثيرة^(٢) ويسمى أيضاً الحمض، وقد ورد اسمه في أشعار الجاهليين قال سلامة بن جندل^(٣):

يا دار أسماء بالعلياء من أضم بين الدكاك من قو قمعضوب^(٤)

يرفد هذا الوادي، وادي القرى شمال المدينة وكان يمر به طريق القوافل القديم وقد أصبح في الجاهلية الأخيرة يعج بالقرى ويزخر بالواحات^(٥)، ووادي العقيق في جنوب المدينة الذي يعتبر أعظم أودية الحجاز، فهو عبارة عن مجموعة أعنة أودية شقتها السيول - أحدها العقيق الأصغر وفيه بئر رومة، والآخر العقيق الأكبر وفيه بئر عروة^(٦).

وأما وادي الرمة وهو أعظم وديان الجزيرة يتكون من التقاء بضعة شعاب ومسيلات يمتد من فداك إلى القصيم في الشرق^(٧) يبلغ طوله 950 كم^(٨) وهو غني بالمياه الجوفية

(1) ياقوت: معجم البلدان مادة وادي.

(2) الهمداني: الصفة ص 320

(3) سلامة بن جندل شاعر جاهلي من عشيرة الحارث من بطن الغزير من بني تميم وهو معنود من شعراء الجاهلية المجيدين، ديوان سلامة بن جندل، محمد بن الحسن الأحوال تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - دار الكتب العلمية بيروت ط2 ص 1987 - 87-88 يختصر إلى ديوان سلامة بن جندل، دائرة المعارف الإسلامية ج12 ص 53.

(4) ياقوت: معجم البلدان مادة أضم شريف: مكة والمدينة ص 14

(5) ياقوت: معجم البلدان مادة قرى جواد: المفصل ج1 ص 168 169 0

شريف: مكة والمدينة ص 16.

(6) الفيروز آبادي (مجد الدين ابي الطاهر محمد بن يعقوب) المغانم المطابة في معالم طبابة تحقيق حمد الجاسر ط 1969 ص 266 يختصر إلى الفيروز آبادي: المغانم المطابة ياقوت: معجم البلدان مادة عقيق

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة رمة شريف: مكة والمدينة ص15 بيضون (إبراهيم) الحجاز والدولة الإسلامية - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت - لبنان ط1 1983 م ص33-34 يختصر إلى بيضون:

التي تظهر أحيانا على شكل عيون ماء^(٥٦).

وفي اليمن أودية كثيرة أقيمت على بعضها السدود لتخزين مياه الأمطار الموسمية والاستفادة منها لري الحقول والبساتين على مدار السنة مثل وادي زبيد^(٥٧) ووادي مور^(٥٨) وغيرهما وتتلقى وديان حضرموت مياهها من جبال اليمن وحضرموت أشهرها الوادي الكبير أو وادي حضرموت ويعد أطول واد في الجزيرة بعد وادي الرمة^(٥٩).

ويخترق سطح نجد واليمامة أودية أشهرها وادي العرض أو وادي اليمامة الذي ينصب من مهب الشمال ويفرغ في مهب الجنوب^(٦٠). وكان وادي العرض قبيل الإسلام غنياً بمزروعاته يؤيد ذلك قول الأعشى:

ألم تر أن العرض أصبح بطنها نخيلاً وزرعاً نابتاً وفصافصاً^(٦١)

من كل ذلك نرى أن الجزيرة العربية من البلدان الفقيرة بالمياه ولكن رغم فقرها بالمياه فيها مناطق ذات تربة خصبة ومناخ معتدل كاليمن وحضرموت في الجنوب وجبال الطائف قرب مكة ومدينة يثرب في الشمال واليمامة في الجنوب الشرقي.....

- النبات

من الطبيعي أن تتنوع النباتات الطبيعية في الجزيرة العربية وتختلف باختلاف التضاريس والتربة، وكمية الأمطار، فتتركز الغابات والأحراج على سفوح جبال السراة وحضرموت وظفار وفي وديان الجبل الأخضر في عمان حيث تتلقى كميات غزيرة من الأمطار الصيفية أو الشتوية. وكلما توغلنا إلى الداخل باتجاه الصحاري تقلص الغطاء النباتي وتبعثرت بقاعه وطالت فترة نمو الشجيرات والأعشاب والحشائش. وتحدثت المصادر ومن ضمنها الشعر الجاهلي أنه كان ينمو على متون الجبال السدر

الحجوز

(1) شريف مكة والمدينة ص15 دلو: جزيرة العرب 1/45

(2) بليبييف: العرب والإسلام ص64

(3) الهمداني: الصفة ص120

(4) الهمداني: الصفة ص123-258-259

(5) دلو: جزيرة العرب ج1 ص45

(6) ياقوت: معجم البلدان مادة عرض

(7) ديوان الأعشى ص101

والشوحط^(١٤) والضال والسمر^(١٥) والكتم والظيان والتين البري والعرعر^(١٦).

وفوق هضبة نجد وفي أوديتها تنمو صنوف عديدة من الشجيرات والأعشاب
والحشائش البرية ذكرها الهمداني نذكر منها السمر والطلح والعرقصان والأقحوان
والخزامى والخلة^(١٧).... وأفرد أيضاً باباً لذكر نبات اليمن^(١٨).

وقد أفاد العرب في تلك الفترة من بعض أصناف الشجر في بناء بيوتهم، وإقامة
الحظائر لأنعامهم^(١٩) واتخذوا من بعضها القسي والسهام^(٢٠) والرماح حتى أن اسم بعضها
كشجر الوشيح غلب اسم الرماح نفسها قال الأعشى^(٢١):

وترى الجياد الجرد حول بيوتنا موقوفة وترى الوشيح مسنداً
واتخذوا من شجر الميس الرحال قال الأعشى^(٢٢):

زيافة بالرحل حظارة تلوي بشرحي ميسة فاتر
وملئت المخاد بثمار شجرة الجعدة للينها وثخنها وطيب رائحتها^(٢٣) واستعمل بعضها
في صبغ الأقمشة، فاشتهرت اليمن والطائف بدباغة الجلود، فصعدة في اليمن " بلد الدباغ
في الجاهلية وهي في وسط بلاد القرظ"^(٢٤).

(1) الأصمعي: النبات والشجر ص 33 حاشية.

وينظر الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود) النبات باعتناء محمد خير الله نشر المعهد العلمي
الفرنسي للأثار الشرقية القاهرة 1973 ج2 ص32 - 33. 73 يختصر إلى الدينوري: النبات.

(2) ديوان عروة بن الورد - دار صادر بيروت ص23 - 23 الدينوري النبات 46/2 - 93

(3) ديوان عروة بن الورد ص38، الدينوري: النبات 123/2

(4) الهمداني: الصفة ص301 - 302 وما بعد

(5) الهمداني: الصفة 276 وما بعد.

(6) القيسي (نوري) الطبيعة في الشعر الجاهلي، مطبعة دار الإرشاد بيروت 1970 ص79 يختصر إلى
القيس: الطبيعة في الشعر الجاهلي.

(7) الدينوري: النبات 289/2 ابن سيدة: المخصص 142/11

(8) ديوان الأعشى ص57

(9) ديوان الأعشى ص96

(10) دينوري: النبات 207/2

(11) الهمداني: الصفة 249 وينظر ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) المسالك والممالك، دار

والطائف بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة^(١٢)، وكانت النساء تطلين ووجوههن بالورس للزينة وتثبتن شعورهن بالصمغ^(١٣). واستخدموا بعض النباتات في معالجة عدد من الحالات المرضية^(١٤)، وكوقود للتدفئة وللمصايح^(١٥). والجدير بالذكر أنهم عظموا الأشجار وقدروها لفوائدها الجلّى بالنسبة إلى الإنسان والحيوان معاً فاتخذت بعض القبائل من الشجرة معبوداً لها وتصورت وجود قوى روحية كامنة فيها. فقد ذكر عن أهل نجران أنهم كانوا "يعبدون نخلة لهم عظيمة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة، فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه، وحلي النساء، فخرجوا إليها يوماً وعكفوا عليها يوماً^(١٦)".

وكان في الكعبة وثن العزى ومن حوله شجرات يقدسونها^(١٧)، وتعبدت قريش ذات أنواع، وهي شجرة عظيمة خضراء قريبة من مكة كانوا يحجون إليها كل سنة تعظيماً لها، ويعلقون أرديتهم عليها ويذبحون عندها ويقومون يوماً^(١٨).

ثانياً: البنية الاقتصادية

هي الدعامة الأساسية الكبرى في وجود المجتمع واستمرار بقائه وارتفاعه وقد فسرت هذه الدعامة على إنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه.

وقد ترتبط الفعالية الرعوية وتربية المواشي بتلك الفعالية.

ولعلنا نجد أن لكل فترة زمنية خصوصيتها، وباعتبار أننا ندرس الفترة المتقدمة على

المدينة مطبعة بريل 1889 ص 135 - 136 يختصر إلى ابن خرداذبة - المسالك والممالك.

(1) الهمداني: الصفة ص 260 ياقوت: معجم البلدان مادة طائف

(2) الهمداني: الصفة ص 260 ياقوت: معجم البلدان مادة طائف.

(3) ابن سيدة: المخصص 144/11

(4) ابن سيدة: المخصص 142/11

(5) ياقوت: معجم البلدان: مادة نجران

(6) ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب) الأصنام. تحقيق أحمد زكي مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة

1924 ص 18 - 19 - 21 - 27 يختصر إلى ابن الكلبي: الأصنام. وينظر ياقوت مادة عزى لسان العرب مادة

عزز.

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة أنواع لسان العرب مادة نوٹ

ظهور الإسلام فسنظهر ما لهذه الفترة من مميزات.

كان الإنتاج الاقتصادي في الجزيرة العربية رهين البيئة بكل تفاصيلها، وبسبب الجفاف وشح المياه والسيول تداخلت البداوة مع التحضر وتشابكت المصالح عند نهاية خط موحد ليؤلفاً معاً ظاهرة حضارية متميزة، ولم يبق سكان الجزيرة العربية أسرى بصورة مطلقة لهذه التبعية فقد استفادوا من الأهمية التي يتمتع بها موقع الجزيرة العربية الجغرافية كطريق تجارية تصل أطراف العالم المعمور آنذاك بعضه ببعض.

وتحولت هذه الاستفادة إلى موارد خدمات متنوعة على طرق القوافل التجارية وإلى مبادلات تجارية تسرب خلالها التعامل النقدي.

فتوفرت الظروف لنمو العمل الإنتاجي، وظهور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج المتيسرة تاريخياً في تلك المرحلة.

فاستخدمت موارد المياه، وقابليات التربة حيث توجد هذه الموارد للسقي الاصطناعي، ولتنوع المزروعات من الفواكه والحبوب، فكان المزارعون يستخدمون الحيوان في جر المحراث، وفي فتح الماء من الآبار معتمدين في ذلك كله على وسائل وآلات حديدية^(١). وظهرت صناعات يدوية استهلاكية إنتاجية وانفصلت هذه الصناعات عن الزراعة.

ففي المجال التجاري: كانت التجارة أهم الموارد التي شغلت دوراً أساسياً في تشكيل الحياة الاقتصادية بما لها من تداخلات أخرى اجتماعية سياسية دينية في مجتمع جزيرة العرب قبل الإسلام، وكان المقومان الأساسيان لهذا المورد الطيوب والتوابل التي تنبت في جنوبي الجزيرة، ومنها الورس واللبن اللذان لا يكونان في غير اليمن^(٢).

ولقد اشتهرت حضرموت وهي بين اليمن وعمان بأنها كانت أرض البخور واللبن^(٣). أضيف إلى ذلك بعض السلع والبضائع الأخرى.

كانت البضائع تمر عبر الطرق التجارية البرية والبحرية^(٤) وكان التجار يسلكون

(١) بلياييف: العرب والإسلام ص 113 .

(٢) الهمداني: الصفة ص 360

(٣) حتي: تاريخ العرب ص 64

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص 134 - 136 . وينظر: جواد المفصل ح 2 ص 576 شكري (محمد سعيد) الأوضاع القبلية في اليمن - مكتب الدراسات الطلابية 1986 . رسالة ماجستير ص 132 يختصر إلى شكري: الأوضاع القبلية .

الطرق البرية بقدر المستطاع للمتاجرة الدائمة عبر أسواق متواصلة.

استغل عرب الجنوب موقع بلادهم على طرق التجارة العالمية الرئيسية البحرية والبرية، وأن بلادهم موطن الخيرات واللبن والطيوب ومواد أخرى مطلوبة، وأنشؤوا علاقات تجارية وحضارية مبكرة مع بلدان وأقوام الشرق الأوسط والهند وجنوب شرقي آسيا المعاصرة لها.

واكتشفوا مواعيد هبوب الرياح الموسمية، وتبدل اتجاهاتها بين الصيف والشتاء، وسيروا سفنهم الشراعية إلى الهند مدفوعة بقوة هذه الرياح تبعاً لأوقاتها التي تتبدل اتجاهات هبوبها حسب المواسم، وأرسلوا القوافل من جوف اليمن عبر الحجاز إلى سورية وفلسطين شمالاً وإلى منطقة الخليج العربي والعراق شرقاً وإلى مصر غرباً. (ينظر مصور رقم 4 - 5)

كل هذا كان بسبب وجود عدة مناطق جغرافية ولكل منها منتوجاتها الزراعية وإنتاجاتها الحرفية مما هباً في اليمن حاجة اقتصادية دائماً إلى التبادل التجاري (المقايضة). وقد تحققت إمكانيات مثل هذا التبادل التجاري بفضل وجود المدن، المراكز التقليدية للتجارتين الخارجية والداخلية، والأسواق الدائمة القائمة في الأرياف، وكذلك بفضل حركة المرور المنتظمة الجارية في الطرق التي تقدم الخدمات للتجارتين الخارجية والداخلية^(١).

فهيمن اليمنيون على طرق الملاحة البحرية، واحتكروا تجارة الهند التي كانت تأتيهم بأرباح طائلة، واستقرت جاليات منهم في مستوطنات خارج اليمن^(٢).

وبالوقت نفسه حرص عرب الجنوب على تمكين قبضتهم على طرق التجارة والاحتفاظ بأسرار حرفتهم، فكثرت ثرواتهم حتى أصبح غنى الأرستقراطية والتجار مضرب الأمثال^(٣).

حتى أمكن القول: "فاقت السبأي الجميع ثروة بما يتوافر في أرضها من أدغال ذات عطور ومناجم ذهب وأمواء للري وهي تنتج العسل والشمع بكثرة..... فلو تحررت هذه الأقطار تماماً علمت أنها أغنى بلدان الأرض قاطبة بما يتوارد إليها من كنوز دولة الرومان

(1) بيوتروفسكي (م. ب) اليمن قبل الإسلام تعريب محمد الشعبي دار العودة بيروت ط1 1987 ص 113

يختصر إلى بيوتروفسكي: اليمن قبل الإسلام.

(2) حتى: تاريخ العرب ص 88.

(3) حتى: تاريخ العرب ص 78

ودولة الفرثيين^(٤٤) .

وطار صيت ثراء هذه الطبقة حتى بلغ مسامع اليونان والرومان فذكر أن السبثيين فينيقيو البحر الجنوبي^(٤٥) .

أسهمت التجارة في تطور اليمن وتقدمها وكان لها حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكـل " إذ كان يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان.

ويعمل فيها السكر والقلوب وتطليب أوانيها بالعطر والبخور ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية، وفي بيته العدد الصالح من الإماء جملة من الخدم والعييد والخصيان من الهنود والحبش، ولهم الديارات الجليلة والمباني الأنيفة^(٤٦) .

ولم يقتصر أمر التجارة على التجار المحترفين بل تعاطاها الملوك وسدنة المعابد، وأصحاب الأملاك ورؤساء العشائر، حتى أن بعض الطرق سميت باسم أحد ملوك حمير في بداية القرن الخامس الميلادي أسعد كامل وهو طريق يصل إلى شمال الطائف ويتصل بطريق الحجاز^(٤٧) .

أثارت أرباح التجار من العرب من التجارة الشرقية أطماع اليونان والرومان والبيزنطيين من بعدهم فزاحموا العرب وأنزلوا سفنهم التجارية الضخمة والقوية وذات الصنوف الأربع من المجاذيف إلى مياه البحر الأحمر، ومنه إلى المحيط الهندي وصولاً إلى الهند، وبالطبع كان هذا نذير خطر لحياة اليسر والرخاء في بلدان الجزيرة العربية فمال نجم دول الجنوب إلى الأفول. يقول حتي: فلو تصفحنا "كتاب الطواف حول البحر الإريتري، وهو أول ما وصلنا من مدونات العلاقات التجارية المنظمة بين الشرق والغرب التي أنشأها الغربيون وأبتوا لها السفن وقاموا على إدارتها لرأينا بوادر جديدة تشعربنا بانقلاب عظيم في ميدان التجارة، ولكن الخط البحري الجنوبي الذي ينتهي إلى الهند ظل في أيدي العرب حتى القرن الأول للميلاد^(٤٨)

(١) حتي: تاريخ العرب ص 78 نقلاً عن غيره.

(٢) حتي: تاريخ العرب ص 28

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج 5 ص 7

(٤) جواد: المفصل ج 2 ص 576

(٥) حتي: تاريخ العرب ص 93 نقلاً عن كتاب الطواف حول الإريتري.

أدى هذا التحول إلى التدهور الاقتصادي تلاح تدهور سياسي كما هو مألوف في مثل تلك الأحوال، ثم غزا الأحباش البلاد العربية وتصدع سد مأرب وتدهورت الزراعة وتلتها الصناعة^(١).

ثم تصارع الرومان والفرس على اليمن، فزادت التجارة ضعفاً، وحينئذ فقدت اليمن سيادتها على التجارة، لأن الحبش لم يستطيعوا تدير شؤونها مما هيا ظروفاً ملائمة لنمو حركة التجارة في الحجاز ومكة بخاصة، فقد كان يشقها شريان رئيس من شرايين التجارة العالمية تنفرع منه شرايين تتجه باتجاه الشرق والشمال الشرقي، وفي موازاته شريان رئيسي آخر كان له دوره في عالم تجارة ذلك الزمن^(٢).

وتشير المصادر العربية إلى تزايد من كان يتعاطى التجارة ويعمل فيها، ويعيش منها، وكان لذلك أعظم الأثر في قيام محطات تجارية أهمها مكة على الطريق البري وثغور تجارية بحرية كالشعبية مرفأً مكة القديم^(٣)، والجار فرضة المدينة على شط البحر، وجدة فرضة أهل مكة^(٤).

هيأت الظروف لمكة القيام والنهوض بالتجارة وذلك بسبب تغير طرق التجارة واحتلال الحبشة لليمن كما سلف القول وتصدع سد مأرب ونشوب اضطرابات سياسية وتدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية لعرب الجنوب، فتمت حركة التجارة في الحجاز، ومكة بشكل خاص، وأصبح الحجاز جسراً ربط بلاد الشام وحوض المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطللة على المحيط الهندي^(٥).

فبرزت مكة برغم طبيعة أرضها الجرداء الخالية من الزرع والأنهار والماء، ونشطت فيها قبيلة قريش نشاطاً ملحوظاً في التجارة الداخلية والخارجية، وأصبح لدى المكين في هذا المجال عدد من القواعد والأصول شكلت عرفاً تجارياً متبعاً.

وأصبحت التجارة تؤثر تأثيراً ملحوظاً في تحديد الاتجاه الذي كان يتخذه التطور الاجتماعي آنذاك من حيث منحى الروابط القبلية والأسرية، والتوجهات الاقتصادية

(١) ينظر فيما بعد من فصول

(٢) جواد: تاريخ العرب ح 4 ص 161، سالم تاريخ العرب ص 341

(٣) الأزرق: أخبار مكة 157/1 - 160، ياقوت: معجم البلدان مادة شعبية جواد: المفصل 115/4

(٤) الأصطخري: المسالك ص 23

(٥) سالم (عبد العزيز) تاريخ العرب في عصر الجاهلية - دار النهضة العربية 1971 ص 341 يختصر إلى

سالم: تاريخ العرب وينظر أيضاً دلو: جزيرة العرب 130/1

والاجتماعية والسياسية والثقافية والأيدولوجية في السير على طريق الوحدة، وتفسخ معنى العصبية، وظهور عصبية أخرى تتعلق بالعمل الذي مارسه السكان، فكان مفتاح التحول الكبير الذي حققت مكة معه انطلاقتها العالمية هو نظام الإيلاف^(١).

وذلك في سبيل توفير الأمن من اعتداءات القبائل على القوافل التجارية التي تريد بلاد الشام أو العراق أو اليمن والعربية الجنوبية أو العائدة منها.

فعندما أصابت مكة سنوات من الجذب، ذهبت بالأموال، خرج هاشم إلى الشام وقابل قيصرًا، وطلب منه أن يكتب له أماناً بدخول بلاده، وكان له ما أراد حيث كتب الحاكم الروماني أماناً لمن يقدم من التجار القرشيين إلى بلاده، وأقبل هاشم بذلك الكتاب، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من أشرافهم إيلافاً، والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الطريق، وهو العهد والذمام^(٢).

فإن دل هذا على شيء فإنه يدل على ضخامة المهمة التي كان يقوم بها زعماء قریش الأثرياء في مجال الوساطة التجارية والاتجار مع بلدان العالم الخارجي والأسواق الداخلية، مما فرض أشكالا من التنظيمات التجارية المتطورة بالقياس لعصر ما قبل الإسلام، وإن هذه التنظيمات إنما كانت بوعي من ضرورات الإفادة المطلقة العائدة لصالح الفئات العليا من قریش وصالح المتعاملين معهم من أمراء ووجهاء القبائل داخل بلاد العرب، ومع الحكومات والجماعات التجارية خارج بلاد العرب، فقد نظموا الأسواق الموسمية، فكان الناس يخرجون في موسم الحج في شهر ذي الحجة فيصحبون بعكاظ بين مكة والطائف يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى سوق مجنة التي تقع قرب مكة في أرض كنانة مدة العشرة أيام الأخيرة من ذي القعدة^(٣)، ثم يرتحلون إلى ذي المجاز في الأيام الأولى من ذي الحجة حتى

(1) البلاذري (أحمد بن يحيى) أنساب الأشراف تحقيق محمد حميد الله - دار المعارف بمصر ج1 ص59 يختصر إلى البلاذري: أنساب الأشراف.

الطبري: (أبي جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ط4 ج2 ص252 يختصر إلى الطبري: تاريخ الرسل والملوك، المسعودي: مروج الذهب ج2 ص33. جواد: المفصل ج4 ص67، ج7 ص302

(2) لسان العرب: مادة ألف.

(3) الأزرقي: أخبار مكة 1/188. 190. وينظر ياقوت مادة مجنة - أفغاني: سعيد أسواق العرب في الجاهلية والإسلام - دار الفكر ط3، 1974، ص345 يختصر إلى الأفغاني: أسواق. هبو: تاريخ العرب 323.

الثامن منه^(٤٤)، وهذه السوق تلي عكاظ في الأهمية، وهي من أسواق العرب الكبرى وهي لهذيل على يمين الموقف من عرفة قريبة من كعبك على فرسخ من عرفة^(٤٥).

كانت هذه الأسواق قسماً من أعمال الحج حتى أن قريشاً وغيرها من العرب تقول:

لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذي الحجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم^(٤٦)، أكسبت هذه التنظيمات الداخلية والخارجية الفئات التجارية العليا في قريش من تعاملها، ومن خلال الاضطرابات والحروب التي كانت تحدث في الجزيرة أو حولها خبرات تجارية ودبلوماسية وسياسية دفعها لاتخاذ موقف سياسي يمكن أن تسميه بالحياد أي الابتعاد عن استخدام القوة كوسيلة لحل المشكلات المتنازع عليها واللجوء إلى المفاوضات السلمية، وإقامة علاقات ودية أو حسنة، أو على الأقل تطبيع علاقات مكة مع أمراء العرب والحكومات الأجنبية، وعدم التورط في الانضمام إلى معسكر الساسانيين. أو معسكر الروم البيزنطيين اللذين كانا يتنازعا على السيطرة على المنطقة العربية.

وكان من مصلحة الروم البيزنطيين أن يحسنوا علاقاتهم مع سادات العربية الغربية وترضيهم ليؤمنوا بذلك على سلامة تجارتهم في البحر الأحمر، وعلى وصول السلع الأفريقية والهند واليمن إليهم عند تعسف الساسانيين بالتجارة البرية التي كانت تأتي من الهند والصين عبر العراق لتباع في بلاد الروم والأسواق الأوربية وعند نشوب الحرب وهي مستمرة بينهما، فينقطع وصول سلع الترف والمنسوجات الحريرية والقطنية والبخور، أما التجارة عن طريق العربية الغربية فلم تكن تتأثر بأذى الحروب وبالنزاع المستمر بين الساسانيين والروم. وقد يكون للبيزنطيين أيضاً من وراء عقد الاتفاقات مع العرب أهداف أخرى سيأتي ذكرها في مكان آخر.

أضف إلى ذلك أنه كان لقريش رحلتان. رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى

(١) الأزرقي: أخبار مكة 1/188، ابن حبيب (أبي جعفر محمد) المحبر - مكتبة المثنى بغداد 1942 م ص 267 يختصر إلى ابن حبيب المحبر، هو: تاريخ العرب 323.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة 1/190، ياقوت: مادة حجاز، الأفغاني: أسواق 347 وكعبك جبل خلف عرفات - ياقوت مادة كعبك.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة 1/192

قال تعالى: ((إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف^(٤١))).

وبهذا عظم قوافل قريش، وكثرت أموالها كما ذكر عن قافلة أبي سفيان أثناء الحديث عن وقعة بدر الكبرى^(٤٢).

حملت هذه القافلة أموالاً لمعظم بطون قريش، وهذا دليل واضح على نشوء تضامن وتعاون اجتماعي جديد مبني على أساس المصلحة التجارية، وكان نتيجة ذلك أن وظفت قريش أموالها في مشاريع استثمارية خارج الحجاز، وكان لها معاملات تجارية كالشراكة^(٤٣) والمضاربة^(٤٤) مما كان له أثر في تعريف أهلها الكتابة والحساب والمكايل والموازين فدرت هذه المعاملات عليهم أرباحاً عظيمة جعلتهم أثرياء نعموا بالحياة وغرقوا بالترف واتخذوا الرقيق الذي راجت تجارته آنذاك وتنافسوا فيما بينهم بما يملكون منه.

ولعل الحج كما سبق القول شغل دوراً كبيراً في ازدهار تجارة قريش جعلها تنظمه وتعقد له الأسواق لتبيع وتشتري في ظروف آمنة فأجرت له ترتيبات تكفل لها ذلك كالسقاية والرفادة..... الخ^(٤٥).

وظهر الربا^(٤٦) نتيجة لهذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي وكان في نظر القوم مصدراً لشراء الفئات العليا، وإعلاء كلمتها ولكنه كان في الوقت نفسه أحد أسباب سخط الناس عليه وعلى من يتعاطاه لأنه كان فاحشاً جداً.

(1) ابن هشام: السيرة النبوية 1/57. 143

(2) سورة قريش آية 1-2

(3) ابن هشام: السيرة 1/257، الطبري: تاريخ الرسل والملوك 2/421، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 116/2.

(4) الشراكة مخالطة الشريكين للمال - لسان العرب مادة شرك وخلط.

(5) المضاربة أن تعطى إنساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الربح بينهما أو يكون له سهم معلوم من الربح لسان العرب مادة / ضرب

(6) ابن هشام: السيرة 1/143، الأزرقى: أخبار مكة 1/110-111 وما بعد.

(7) الربا الزيادة على أصل المال من دون عقد تباع لسان العرب مادة ربا.

شارك في ذلك وجهاء من ثقيف كأبي مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف^(١) وتوثقت العلاقات الاقتصادية بين الحاضرتين، وارتبطت مصالح وجهاء القبائل بمصالح كبار التجار في مكة حتى أن بعض المكيين أمثال العباس بن عبد المطلب كان لهم أراض في الطائف^(٢).

أما المواد التي تاجروا بها فالأدم^(٣) من اليمن والطائف إلى بلاد الشام، وكان بعضها مصقولاً معتنى به مزخرفاً بالذهب عرف بالمذهب^(٤)، ونقلوا العطر من اليمن إلى مكة^(٥) وتاجروا بالزبيب من الطائف، ومعادن الحجاز ورقيق أفريقية وقمح مصر في بعض الأحيان، والزيت الركابي من بلاد الشام، وعرف بالزيت الركابي لأنه كان يحمل على الإبل من الشام^(٦).

والجدير بالذكر أنه عمل بعض أهل الحيرة بالتجارة حيث أتاح قرب الحيرة من نهر الفرات للعاملين بالتجارة أن يركبوا السفن الصغار في الفرات حتى الأبله، ثم يركبوا السفن الضخام من هناك فيطوفون بالبحار إلى الهند والصين من جهة الشرق، وإلى البحرين وعدن من جهة الغرب. وكانت تتوارد على الحيرة المتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الصين والهند وغيرها^(٧).

ومن الحيرة كانت القوافل تحمل تجارة الهند والصين وعمان والبحرين وفارس والعراق والجزيرة العربية إلى تدمر وحوران، وترتب على هذه الحرفة تدفق الثروات على أهل الحيرة^(٨).

(1) ابن هشام: السيرة 387/1

(2) الأزرقي: أخبار مكة 1/114 - البلاذري فتوح البلدان ص 68

(3) الأدم الجلد المدبوغ: لسان العرب مادة آدم

(4) تاج العروس: مادة ذهب

(5) الاصبهاني: الأغاني 1/64-65 . جواد: المفصل 7/293

دلو: جزيرة العرب 1/136.

(6) تاج العروس مادة ركب، جواد: المفصل 7/293-294

شريف: مكة والمدينة ص 205-206

(7) البكري: معجم ما استعجم 2/478، سالم: تاريخ العرب ص 300

(8) سالم (عبد العزيز) دراسات في تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، دار المعارف بمصر 1968 ح 1 ص 384

ومارس ملوك الحيرة التجارة في أسواق الحيرة الداخلية وأرسلوا لطائمتهم إلى أسواق الجزيرة العربية الموسمية وخاصة إلى سوق عكاظ، فقد كان النعمان ابن المنذر يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة فتباع له بسوق عكاظ ويشتري له بتمنها العصب والبرود والأدم وغير ذلك من طرائف اليمن^(٤٤).

وقد تعرضت بعض لطائم النعمان إلى النهب برغم حمايتها^(٤٥)، كما كانت الحيرة نفسها سوقاً مقصودة^(٤٦).

وعقد ملوك الحيرة عهوداً (اتفاقات أمان) مع عدد من أقوياء سادات القبائل التي تمر القافلة التجارية عبر أراضي قبائلهم تتضمن تعهدهم بالمحافظة على سلامتها ذهاباً وإياباً. والجدير بالذكر أنه كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند اليهود، فقد عرفت خيبر وسوقها الشهيرة نطاة خيبر بأنها واحدة من أهم مراكز التجارة وأسواقها الموسمية ليس في بلاد الحجاز، وعند الحجازيين فحسب بل في جزيرة العرب وعند العرب قبل الإسلام، فها هو ابن حبيب يصنفها ضمن (أسواق العرب المشهورة ومبايعتهم فيها)^(٤٧). ويرى غوستاف لوبون أن خيبر كانت مقر تجارة اليهود في بلاد الحجاز قبل الإسلام^(٤٨). فقد أعدها اليهود لتكون واحدة من أهم المحطات التجارية التي تحط عند أبواب حصونها هوافل التجارة التي تجوب شبه الجزيرة من سوق إلى سوق^(٤٩).

أضف إلى ذلك أن يهود الجزيرة أو بالأحرى يهود خيبر ظلوا بعيدين عن الصراع الدولي

يختصر إلى سالم: دراسات في تاريخ العرب.

(1) البلاذري: انساب الأشراف 1/100-101، الأفغاني: أسواق 357 جواد: المفضل 3/277 دلو: جزيرة العرب 147/1 واللطيمة قافلة تحمل المسك والحريز.

(2) الاصبهاني: الأغاني 22/57، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/590 واللطيمة العير تحمل الطيب ويز التجار وغيرها - لسان العرب مادة لطم

(3) حمور (عرفان) أسواق العرب، عرض أدبي تاريخي للأسواق الموسمية العامة عند العرب - دار الشورى بيروت ص 203 يختصر إلى حمور: أسواق. سلام (شافعي محمود سلام) النشاط التجاري في خيبر منشأة المعارف باللاسكندرية ص 17.

(4) ابن حبيب: المحبر 196

(5) لوبون (غوستاف) حضارة العرب: نقله إلى العرب عادل زعيتر - مطبعة الحلبي 1969، ص 107 يختصر إلى لوبون حضارة العرب.

(6) الأفغاني أسواق 356

الذي شهدته بعض المناطق في شمالي الجزيرة وجنوبها قبل الإسلام، كما ظلوا بعيدين عن المنازعات والحروب القبلية التي قامت بين القبائل العربية، ولعلهم اصطنعوا الكرم وتظاهروا به لاجتذاب التجار، فيذكر الواقدي أن اليهود لا تغلق عليها أبوابها فرحاً أن يطرقتها ضيف فيصبح أحدهم بالفناء ولم يضيف فيجد الباب مفتوحاً فيدخل فيتعشى^(١).

كان لليهود علاقات تجارية واسعة خارج منطقة الواحة في خيبر، وأسهموا بدور هام في التجارة الخارجية لجزيرة العرب قبل الإسلام. إذ كانت التجارة الدولية من الأعمال التي برع فيها اليهود^(٢). واحتكروا بعض السلع وكانت معظم تجارة القمح والشعير والتمر وأنواع الأقمشة في أيديهم^(٣).

وكان التاجر اليهودي الجائل معروفاً في كل مدينة وبلدة ومعروفاً في كل سوق^(٤) وكان على اتصال مع البلاد التي ينزل فيها كيثر ب وادي القرى وفدك وتيماء وبلاد اليمن والعراق وبلاد الشام وفلسطين^(٥).

من كل ما تقدم يمكن القول إن الجزيرة العربية مارست التجارة بشكل واسع وقد ساعد على ذلك موقعها في ملتقى أهم الطرق التجارية العالمية الموصلة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

- الزراعة

كان الحديث في بداية الفصل أن البيئة الطبيعية حددت نوعية البنية الاقتصادية في أجزاء الجزيرة العربية، فانقسمت القبائل حسب نوع العمل إلى قبائل بدوية متجولة، وقبائل فلاحية مستقرة مارست الزراعة، وقبائل نصف فلاحية أو نصف متجولة.

وعلى الرغم من أن الطبيعة هي التي حددت التقسيم المشار إليه لعمل القبائل غير أن سكان الجزيرة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام التبعية لعوامل الطبيعة، فقد عملوا بدأب

(١) الواقدي (محمد بن عمر) المغازي تحقيق مار سدن جونس مؤسسة الأري للمطبوعات بيروت - لبنان ح 1 ص 392 يختصر إلى مغازي الواقدي.

(٢) النشاط التجاري في خيبر ص 22.

(٣) ولفنسون (إسرائيل) تاريخ اليهود في بلاد العرب - القاهرة 1927 ص 18 يختصر إلى ولفنسون تاريخ اليهود في بلاد العرب.

(٤) سلام النشاط التجاري في خيبر ص 22.

(٥) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب ص 74.

ونشاط برغم المعوقات الطبيعية والاجتماعية والسياسية على توسيع أعمال الري الاصطناعي فحفروا الآبار في الوديان والواحات وبعض السهول الساحلية لاستثمار موارد المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، وأقاموا الحواجز في مواضع تجمع مياه الأمطار في الأودية لتوزيع مياهها في أوقات معينة، وبالحصص على المزارعين وأنشؤوا السدود، وشقوا الأقنية، واستخدموا الحيوان في جر المحراث وفي متح الماء من الآبار معتمدين في ذلك كله على وسائل وآلات حديدية^(١).

وقد سبق أهل اليمن غيرهم من عرب الجزيرة واكتسبوا تجارب غنية في هذا الاتجاه وكانت الزراعة تقوم على مياه الأمطار والري الاصطناعي في اليمن وعمان^(٢).

أما في المناطق القليلة المطر أو تهطلها غير منتظم كواحات الحجاز ونجد واليمامة، فتعتمد الزراعة على الري بصورة أساسية، وكانت معظم الأراضي لوجهاء القبائل والملاكين الكبار والمعابد وأثرياء التجار وملك الباقي المزارعون الصغار.

مما يشير إلى تلاشي الملكية الجماعية للأرض، وقيام الملكية الخاصة، وكان أصحاب الأراضي الواسعة يستثمرونها بطرق مختلفة كالإيجار أو استثمارها على الثلث أو النصف أو أقل من ذلك، أو أكثر^(٣) أو بالمزايمة^(٤) أو المحاقلة^(٥). وقد توسعت رقعة الأراضي الفلاحية وتعددت المناطق الزراعية في الجزيرة وتنوعت المحاصيل بتنوع التضاريس والمناخ والتربة.

والجدير بالذكر أن الزراعة تقدمت في اليمن أكثر من أية منطقة أخرى، وقد دعيَت اليمن بالخضراء عند الجغرافيين العرب وذلك لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها^(٦).

وكانت الزراعة في اليمن تعتمد على مياه الأمطار والري الاصطناعي كما سلف ذكره حيث أقام المزارعون المدرجات على سفوح الهضاب للحفاظ على التربة ومنعها من الانجراف.

(١) بليبايف العرب والإسلام ص 113.

(٢) البيلاني: فتوح البلدان ص 82 وما بعد.

(٣) البخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري. مطبعة الهندي ح 2 ص 820 وما بعد يختصر إلى صحيح البخاري.

(٤) المزينة: اشتراء التمر من رؤوس النخل: صحيح البخاري 763/2 وينظر الأفغاني: أسواق ص 50-51.

(٥) المحاقلة مفاعلة الحقل وهو الزرع والمراد بيع الحنطة في سنبها بحنطة صافية صحيح البخاري ح 2 ص 763 حاشية. أفغاني: أسواق ص 50.

(٦) ينظر في البنية الطبيعية

ومما ساعد على رفع مستوى الزراعة وازدهارها في اليمن بناء منظومة واسعة من السدود والأحواض لحفظ مياه الأمطار الموسمية الصيفية الغزيرة وتوزيعها على الحقول والبساتين عند الحاجة. ويذكر الهمداني أن في أحد مخاليف^(١٦) اليمن ثمانين سداً، وفيها قيل^(١٧):

وبالرربة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقلس الماء سائلا

ويعد سد مأرب من أهم السدود التي اكتسبت شهرة في تاريخ اليمن والجزيرة العربية حتى اليوم، فقد كان يشكل العمود الفقري لتنظيم الري الاصطناعي ولتطور الزراعة الكثيفة في العربية الجنوبية. وقد عبر القرآن الكريم عن ازدهار الزراعة في اليمن بوصفه مسكن سبأ بأنه "جنتان عن يمين وشمال"^(١٨).

وكانت الحكومات تتفق على مثل هذه الأعمال من أموالها كما يشير إلى ذلك نص أبرهة^(١٩).

وبانهيار سد مأرب تأثرت أساليب الزراعة وكان لزاماً على الفلاح أن يزرع أنواعاً تقاوم الجفاف فزرعت الذرة جنباً إلى جنب مع زراعة القمح^(٢٠) وكثرت النباتات فيها وزرعت العديد من المزروعات^(٢١). إذ بقيت اليمن بلداً زراعياً على الرغم من فقدان أهميتها الاقتصادية وانهيار سد مأرب والاحتلال الأجنبي وهجرة بعض قبائلها إلى مناطق أخرى.

واشتهرت ظفار باللبان^(٢٢)، وكانت عمان ذات نخل وزروع^(٢٣)، وانتشرت باليمامة الكثير من مناطق الزراعة الهامة قبل ظهور الإسلام وصفت بأنها بلاد واسعة ذات نخل وقصور^(٢٤).

(1) ينظر لشرح معنى هذه الكلمة فيما بعد

(2) الهمداني: الصفة 215

(3) سورة سبأ آية 15

(4) بافقيه (محمد عبد القادر) تاريخ اليمن القديم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1973 ص 168 حتى ص 170 يختصر إلى بافقيه: تاريخ اليمن القديم، هيو: تاريخ العرب ص 136.

(5) بلياييف: العرب والإسلام ص 92، بيتروفسكي اليمن قبل الإسلام ص 104 - 105

(6) الهمداني: الصفة ص 276 - 358 - 359، ياقوت مادة صنعاء.

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة ظفار

(8) ياقوت: معجم البلدان مادة عمان

(9) الدينوري (أبي حنيفة) الأخبار الطوال - مراجعة حسن الزين

وكثرت في وادي العرض لخصبه القرى والزروع والحبوب والنخيل والأشجار^(١٤) قال
الأعشى^(١٥):

ألم تر أن العرض أصبح بطنها نخيلاً وزرعاً ثابتاً وفصاً فصاً

وكثرت المزروعات في الواحات كثير ب والطائف ودومة الجندل، فالنخيل أهم
مزروعات يثرب وعليه اعتماد السكان، منه تدفع الأجور وتسدد الديون^(١٦)، أضيف إلى
ذلك الشعير والبقول والخضراوات والسلق والبصل والثوم والقشء وحب اللبان والليمون
والسفرجل والخوخ والفل والموز والعنب والتين والرمان^(١٧)، وكانت هذه المزروعات تسمى
من الآبار عليها العبيد^(١٨).

واعتمد سكان الطائف على الزراعة البعلية والمروية فكانت العير إذا قدمت من
السراة والطائف وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل إلى مكة^(١٩). وقد
نسب البدو بما عرفوه عن أهل الطائف من دهاء وكياسة إلى اعتيادهم العيش على
الحنطة حتى غدا ذلك مضرب الأمثال^(٢٠). ولقد ضرب بزييب الطائف المثل^(٢١).

واشتهرت خيبر بوفرة مزارعها ونخيلها حيث كان يسكنها قبائل متحضرة مارست
الزراعة وبنيت القرى وشيدت الحصون^(٢٢).

من كل ذلك نرى أشكالا للنشاط الزراعي وذلك بسبب اختلاف الظروف الطبيعية
ومستوى تطور القوى المنتجة من مناطق الجزيرة.

وحيث تشكل البوادي والسهوب معظم مساحة الجزيرة فإن الطبيعة تتحكم في

(1) الهمداني: الصفة 283-284

(2) ديوان الأعشى ص 101

(3) سهودي (نور الدين علي بن أحمد) وفاء الوفا - دار إحياء التراث العربي ط 4 1984 م. ح 2 ص 155
يختصر إلى سهودي وفاء الوفا.

(4) ابن هشام السيرة 2/144، ياقوت / معجم البلدان مادة مدينة، الفيروز ابادي المغانم المطاوعة ص 189.

(5) ياقوت: معجم البلدان مادة طائف.

(6) الأزرقي: أخبار مكة 2/239

(7) دائرة المعارف الإسلامية مادة طائف

(8) ياقوت: معجم البلدان مادة طائف

(9) ياقوت: معجم البلدان مادة خيبر

معيشة سكان هذه المنطقة وتفرض أسلوباً لحياتهم وعملهم فكان الطابع المميز لهذا الأسلوب تربية الأغنام والترحال بحثاً عن الكلأ والماء.

وكان الجمل أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب وأعزها شغل دوراً كبيراً في حياة العرب الاقتصادية، يدل ذلك على ذلك ما يقال من أن اللغة العربية تضم نحو ألف اسم للجمل في مختلف أنواعه وأشكاله، ومراحل نموه. وهو عدد لاينا فسه إلا عدد المترادفات لكلمة السيف. وقد أشار القرآن الكريم إليه بقوله: "ولكن فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم" (١).

لأهمية الإبل أفرد ابن سيدة لها في مخصصه صفحات كثيرة ذكر فيها حملها ونتاجها وصفاتها وأسنانها وفطامها ونعوتها في الوله، واشتداد الحنين، وفي دمايتها وسمنها وقلة لحومها وأوبارها واجترارها ورعيها وبروكها وإناعتها وسيرها في اللين والرفق والسرعة وأمراضها ومعالجتها (٢).

أضف إلى ذلك ممارسة تربية المواشي والخيول للتسلية واللهو واللعب، لأن أمر اقتناء الخيل في بلاد العرب من الأمور الكمالية، فإطعامها والعناية بها مشكلة من مشاكل ابن الصحرأ لا يستطيع حيازتها إلا من كان على سعة العيش (٣).

وفي القرآن الكريم ذكر للخيول كمصدر من مصادر القوة يرهب بها المسلمون أعداءهم ومصدر من مصادر الثروة والزينة وبهجة الحياة الدنيا "..... والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (٤).

وقوله تعالى: ((وأعدو لهم ما استعظتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم (س٥)).

(1) أبي هلال العسكري: التلخيص تحقيق عزة حسن دمشق 1970، ج2 ص524 - 572 وما بعد يختصر إلى العسكري: التلخيص.. سورة النحل آية 8.

(2) ابن سيدة المخصص 7/ من ص 1 حتى ص 175.

(3) التيمي (أبي عبيدة معمر بن المثنى) الخيل - دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ط1 1358 ص 2 - 3 يختصر إلى التيمي كتاب الخيل. حتي: تاريخ العرب ص48.

(4) سورة النحل الآية 8

(5) سورة الأنفال الآية 60

ولأهمية الخيل أفرد ابن الكلبي ومعمربن المشى التيمي وغيرهما كتاباً خاصاً بها^(١٤).

والجدير بالذكر أن تربية الماشية في اليمن كانت ذات طابع حضاري وكانت تغلب فيها تربية الأبقار^(١٥).

- الصناعة

بعد أن كان العربي يزدي الحرفة نجد أنها تطورت وعمل بها الأحرار والعبيد، وظهرت صناعات زيادة الإنتاج وتحسين نوعه، وانقسم المجتمع إلى أهل صناعة، وأهل زراعة، وأهل تجارة وبلغ المجتمع في ممارسة العمل لكسب العيش درجة صار عندها ناتج العمل يفيض عن حاجات العيش الفردي المباشر، وصار الإنتاج مبادلة للتجارة وليس للحاجة الضرورية، ومن هنا تكون التجارة في هذه المرحلة ظاهرة إيجابية تتفاعل إيجابياً مع العمل الإنتاجي.

ساعد على الصناعة وجود المعادن^(١٦) فقد ذكر الهمداني أن الناس كانوا يجمعون التبر ويستخلصون منه الذهب من موضع بيشة أو بيش^(١٧) وضمنكان "وهو معدن غزير لا بأس بتبره^(١٨)". وتوفر الذهب في مأرب^(١٩) وذمار وقد سميت بعض قرارها مثل سامة العليا وسامة السفلى والسام عرق الذهب^(٢٠).

ولوفرة الذهب في اليمن ذكره سيف بن ذي يزن عندما نشر دراهمه على خدم القصر وقال "ما أصنع بالمال وتراب أرضي ذهب وفضة^(٢١)؟"

هذا عليه صفة الأسطورة إلا أنه يدل دلالة أكيدة على وجود الذهب في تلك البلاد.

(1) ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب) (انساب الخيل) تحقيق أحمد زكي باشا - القاهرة مطبعة

دار الكتب المصرية 1946 يختصر إلى ابن الكلبي انساب الخيل - التيمي: كتاب الخيل.

(2) ييتروفسكي: اليمن قبل الإسلام ص106

(3) الهمداني: الصفة ص299

(4) بيش من بلاد اليمن قرب دهلك، ياقوت: معجم البلدان مادة بيش.

(5) الهمداني: الصفة ص259

(6) ابن رسته (أبي علي أحمد بن عمر) الأعلام النفيسة - لندن 1891 ص113 يختصر إلى ابن رسته: الأعلام النفيسة.

(7) ياقوت: معجم البلدان مادة سامة وسام.

(8) ابن هشام: السيرة 1/65، الطبري: تاريخ الرسل والملوك 2/140

وأشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها ومن ضمنها الذهب^(١ع).

وذكر الذهب من ضمن المعادن التي عرفتها الإمامة^(٢ع). يقول: "معدن الحسن، والحسن قرن أسود مليح وهو معدن ذهب غزير، ومعدن الحفير بناحية عمالية وهو معدن ذهب غزير، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب، ومعدن العوسجة من أرض غني فويق المغيرة ببطن السرداح - ومعدن شمام الفضة والصفير ومعدن تيس ذهب محف بتياس^(٣ع).....".

وذكر الهمداني أن الفضة كانت من جملة المعادن المعروفة في اليمن وموضعها بالرضراض وهو معدن لا نظير له^(٤ع). واستخرج العقيق من اليمن^(٥ع).

وكان يغاص للؤلؤ في مياه شواطئ البحرين وقطر وعمان^(٦ع). وتوفر الحديد في مضارب قبيلة سليم الواقعة إلى الشرق من يثرب المدينة^(٧ع). ووجد أيضا بعدن وفي نجران^(٨ع) وقد أشير إلى أهمية الحديد ومنافعه في القرآن الكريم: بقوله تعالى: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس^(٩ع)".

وأشتهرت ظفار بجزعها وهو العقيق الذي فيه سواد وبياض تشبه به العين. قال امرؤ القيس^(١٠ع):

كان عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

(1) الهمداني: الصفة ص274

(2) الهمداني: الصفة ص299

(3) الهمداني: الصفة ص299

(4) الهمداني: الصفة 152 - 364، البكري: معجم ما استعجم 655/2

بيتروفسكي: اليمن قبل الإسلام ص10

(5) الهمداني: الصفة ص364. اعتبر العقيق اليماني فريداً من حيث عمق لونه الأحمر القاتم،

بيتروفسكي: اليمن قبل الإسلام ص109

(6) المسعودي: مروج الذهب 1/168، المقدسي: احسن التقاسيم ص101

(7) الهمداني: الصفة 274-364

(8) الألويسي: بلوغ الأرب 1/204

(9) سورة الحديد: آية 25

(10) ديوان امرؤ القيس ص70

وكان عقد عائشة رضي الله عنها من جزع خلفار^(١). ولذلك أصبحت الصناعة كسلعة قائمة بذاتها موضوعة قيد التبادل ولها أسواق خاصة بها ، مثال على ذلك ما ذكره المقدسي أن صعدة بلد (الركاد الجيدة والأنطاع الحسنة ومنها يرتفع آدم جيد^(٢)) .

وحين قامت صناعة الأسلحة والأدوات الزراعية والأواني الفخارية في مكة ارتبطت مع سوق التبادل ففي حديث خباب بن الارت "كنت قيناً في الجاهلية"^(٣). إن هذه الصناعة كانت متوفرة وقد ضربت العرب المثل بجودة ودقة صناعته ونسبت إليه^(٤).

وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل والوليد بن المغيرة وهما من أشرف قريش حدادين^(٥).

أضف إلى ذلك أنه ارتبطت الحدادة بالزراعة في بعض الحواضر، وعمل بها أناس من العرب، واليهود والموالي، والعبيد، وإن كان الموالي والعبيد أكثر احترافاً لها كأبي سيف^(٦).

وبفضل جهود القيان صنعت غالبية أدوات الزراعة، ففي حديث خيبر "فخرجوا بمساحيهم ومقاتلهم"^(٧) دلالة على هذه الصناعة. وصنع العرب من الحديد الأسلحة والدروع. واشتهرت اليمن بجودتها ف قيل سيف يمانى ودرع يمانى. واشتهرت أيضاً بصناعة بعض أدوات القتال التي كان يلبسها الفرسان اليهود أثناء القتال كالمغافر اليمنية^(٨).

أضف إلى ذلك احتكار اليهود لصناعة الأسلحة والدروع في يثرب، ففي حديث

(1) لسان العرب مادة جزع

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم 78

(3) ابن هشام: السيرة 383/1، البلاذري: انساب الأشراف 176/1 وما بعد ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم)، أسد الغابة في معرفة الصحابة 98/2 يختصر إلى أسد الغابة، لسان العرب مادة قين، جواد: المفضل 555/7

(4) تاج العروس: مادة خيب.

(5) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) المعارف. طبعة دار الكتب المصرية وطبعة المطبعة الإسلامية بمصر الأزهر 1353هـ 1934م

(6) أسد الغابة 38/1 - 39 لم يذكر من هو أبو سيف

(7) ابن هشام السيرة النبوية 343/3 وينظر ابن كثير (إسماعيل أبي الفدا) البداية والنهاية تحقيق علي شيري. دار إحياء التراث العربي ط1 1988 ح4 ص209

(8) سلام: النشاط التجاري في خيبر ص23

الرسول (ص) أنه غنم كل ما لدى بني النضير من سلاح الحلقة والدروع^(١٤)، كما غنم من بني قريظة الدروع^(١٥).

والجدير بالذكر أن صناع الحلبي من اليهود في خيبر استعملوا فصوص العقيق والجزع في صناعة الحلبي وخاصة الفتخ والقلائد^(١٦) والنظم والخواتم وغيرها من أدوات الزينة التي كان اليهود في خيبر يتجرون فيها، فقد اقتصوا بصناعة الجواهر وبيعها^(١٧)، فقد كان بيع الجواهر من اختصاص اليهود في الجزيرة ومراكزها متوزعة إلا أن خيبر فاقتها جميعاً.

ونشطت صناعة الغزل والنسيج في جزيرة العرب ساعد على ذلك توفر الخامات المحلية والأيدي العاملة ونشاط الأسواق فاشتهرت اليمن ونجران بصنع الحلل والثياب الملونة، فقد ورد في صلح المسلمين مع أهل نجران أن يدفع هؤلاء الأخيرين جزية سنوية منها ألف حلة في صفر، وألف حلة في رجب^(١٨) وذكر الاخباريون أن كسوة الكعبة في الجاهلية كانت الأنطاع والمغافر فكساها الرسول (ص) الثياب اليمنية^(١٩). واشتهرت قطر بنوع من الثياب القطرية^(٢٠). ولم تخل حواضر الحجاز من هذه الصناعة فكان مجمع الزاهد حائكاً^(٢١) والعوام أبو الزبير، وعثمان بن طلحة، وقيس بن مخزومة خياطين^(٢٢).

واشتهرت الطائف بالدباغة فقد ذكر أن الطائف بلد الدباغ تدبغ بها الألب الطائفية المعروفة^(٢٣). وذكر الهمداني أن سعداً في اليمن موضع الدباغ في الجاهلية لوقوعها في بلاد القرض^(٢٤).

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص 31

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى لجنة نشر الثقافة الإسلامية القاهرة 1358 ح 3 ص 117

(٣) سلام: النشاط التجاري في خيبر ص 23

(٤) جيورجيو (كونستانس) نظرة جديدة في سيرة رسول الله تعريب محمد التو نجي ط 1 الدار العربية للموسوعات - بيروت 1988 ص 328 يختصر إلى نظرة جديدة في سيرة رسول الله.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص 76

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص 59

(٧) ياقوت: معجم البلدان مادة قطر.

(٨) ابن قتيبة: المعارف ص 577

(٩) ابن قتيبة المعارف ص 577 ابن رسته الأعلاق النفيسة ص 215 جواد: المفصل 125/4

(١٠) الهمداني: الصفة ص 260 ياقوت: معجم البلدان مادة طائف

(١١) الهمداني: الصفة ص 249

ذكر الدينوري أن ورق الحلق بعد معالجته وتجفيفه في اليمن يحمل في البلاد لاستعماله في الصباغة^(١). وذكر الاصبهاني أن أم أبي جهل كانت عطارة تتاجر في العطور وتجلب لها من اليمن^(٢). ولم تخل حواضر الجزيرة من التجارين فكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً. ولقد عمل أمية بن خلف بصناعة الأواني الفخارية^(٣). وعرفت الجزيرة بعض الصناعات الغذائية فبنو سليم كانوا يبيعون السمن في أسواق المدينة^(٤) وكان أهل يثرب يستوردون معظم خمرهم من منطقة الحصون الخيبرية^(٥).

من دراسة الوضع الاقتصادي تبين التقدم في الزراعة ونشوء العديد من الصناعات، فقد تطورت القوى المنتجة وتوسعت أعمال الصناعة، وازداد الإنتاج وتكون فائض للتبادل وحدث تقسيم للعمل جديد، وانفصلت الحرفة عن الزراعة وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل التجاري، ونظمت الأسواق الموسمية، وعقدت الاتفاقات التجارية، وارتبطت أعداد وفئات كثيرة بالعملية التجارية فازداد العرب تقارباً وتآلفاً على أساس المصلحة المشتركة وتلاشت الملكية الجماعية، وحل محلها الملكية الخاصة، فكانت معظم الأراضي ملكاً لثكبار والأثرياء، واستتبعت التفاوت في الملكية والثروة تفاوتاً في المعيشة، وتمايزاً اجتماعياً بين أفراد القبيلة الواحدة فانقسم أبناؤها الأحرار إلى أغنياء وفقراء إضافة إلى الانقسام العرقي كان قائماً بين الأحرار والعبيد، وأصبح للمال الدور الأول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فتنفكت روابط المجتمع، وظهرت روابط جديدة على أساس من المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية.

ثالثاً: البنية الاجتماعية

من الواضح أن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعرب الجاهلية هي حصيلة التفاعل بينهم وبين البيئة التي عاشوا فيها، فقد خضوا لشروط بيئتهم وكيفوا حياتهم

(١) دينوري: النبات والشجر 171/2

(٢) الاصبهاني: الأغاني 64/1 - 65

(٣) ابن قتيبة المعارف ص 575 ابن رسته: الأعلاق النفيسة ص 215 شلتوت ط 2 ح 1 ص 36 حاشية: سمهودي وفاء الوفا 47/2 وما بعد.

(٤) ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري تاريخ المدينة المنورة تحقيق فهد محمد شلتوت ط 2 ح 1 ص 36 حاشية.

(٥) سلام: النشاط التجاري في خيبر ص 27

الاجتماعية مع الظروف الطبيعية التي نشؤوا فيها.

وقد اتصفت ظروف معيشتهم بالقسوة والإملاق والسما شحيحة بالمطر، والأرض صحراوية قاحلة محدودة الثروة، فقيرة النباتات، والمناطق تجف واحدة تلو الأخرى. أما الواحات فهي على الأطراف.

لذلك اضطر السكان إلى التدرج من حياة النقلة الدائمة تبعاً للجفاف الدوري، إلى الاستقرار الدائم وبناء الحواضر في الواحات.

فالإنتاج يحدد نوع الحياة وتتبدل شكل الحياة بتبدل شكل الإنتاج، حيث أوجبت هذه الظروف أن تكون حياة العرب في الجزيرة عبارة عن بدو وحضر، فالحضر سكان القرى والواحات والحواضر، والبدو سكان البادية، المنتقلون سعيًا وراء العشب والماء.

الجغرافية القبلية

كان أعضاء المجتمع العربي باستثناء سكان اليمن المتحضرين مجتمعاً بدوياً انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة عرفت كل منها باسم القبيلة، وقد استعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع في عصر ما قبل الإسلام غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أصغر وهناك ما هو أكبر وهي بالترتيب:

الجنم - الجماهير - الشعوب - القبائل - العماير - البطون - الأفخاذ، العشائر - الرهط وهم رهط الرجل وأسرته، والرهط مادون العشرة والأسرة أكثر من ذلك^(١).

على أن هناك ترتيبات أخرى في كتب علم الأنساب المختلفة وكتب التاريخ المختلفة^(٢). وكانت تتوقف قوة القبيلة ومكانتها بين القبائل على عدد أفرادها ومواردها،

(١) النويري "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب" نهاية الأرب في فنون الأدب ووزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ح 2 ص 277 يختصر إلى نهاية الأرب. جمعة (محمد محمود) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية مطبعة السعادة بالقاهرة 1949 م ص 9 يختصر إلى جمعة: النظم الاجتماعية. عبد الحميد (سعد زغلول) تاريخ العرب قبل الإسلام. دار النهضة العربية بيروت 1976 ص 304 يختصر إلى سعد: تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٢) ابن الكلبي (أبو المنذر محمد بن السائب) جمهرة النسب - دار البقعة العربية ح 1 ص 430 يختصر إلى ابن الكلبي النسب. ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد تحقيق مفيد محمد قححية - دار الكتب العلمية لبنان ح 3 ص 289 يختصر إلى ابن عبد ربه: العقد الفريد

فالقبيـل الجماعة من آباء شتى وجمعه قِبَل، والقبيـلة الجماعة المنتمية إلى أب واحد، وجمعها قبائل وقد قيل سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها^(١٤).

فالرابط الذي يربط أبناء القبيلة ويجمع شتاتها النسب الذي بواسطته حافظت القبيلة على أواصر القرى.

قال تعالى: ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا^(١٥))) وللقبيلة العربية دستور عريق عام يشترك فيه كل أفرادها يختصر في كلمة العصبية والثأر.

فالعصبية هي أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته - قومه الذين يتعصبون له^(١٦). والوقوف إلى جانبهم ظالمين كانوا أو مظلومين فشعارهم: "انصرا أخاك ظالما أو مظلوما^(١٧)".

وبتطور القوى المنتجة - وتلاشي الملكية الجماعية وظهور الملكية الخاصة - كما ذكر أثناء الحديث عن البنية الاقتصادية - تفتت العصبية إلى عصبيات وظهرت عصبيات من نوع جديد مبنية على أساس المصلحة، كعصبية الأقارب وذوي الأرحام وعصبية القبيلة وعصبية الأحلاف وعصبية التقاليد والعصبية المحلية أو الإقليمية.

وكان الثأر نتاجاً طبيعياً للعصبية وامتداداً لها وهو يكمل الغرض نفسه في الحفاظ على كيان القبيلة عن طريق مقابلة الاعتداء عليها باعتداء يهدف القائمون به إلى أن يكون رادعاً، لأن الدم لا يغسل إلا بالدم، واعتبروا القبيلة التي لم تأخذ بثأرها ضعيفة وتسقط بين القبائل، فغاية أو مغزى الثأر عندهم حماية الحمى كقول الشاعر^(١٨):

ولكنني أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمي من رماها بمنكب

الألوسي: بلوغ الأرب 188/3 جواد المفصل 318/4 برو: تاريخ العرب القديم ص255

(1) لسان العرب مادة قبل الألوسي: بلوغ الأرب 188/3

(2) سورة الحجرات الآية 13

(3) لسان العرب مادة عصب

(4) الميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم) مجمع الأمثال تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج2 ص334 يختصر إلى ميداني: مجمع الأمثال.

(5) جواد: المفصل ج4 ص350 حاشية، يحيى (لطفى عبد الوهاب) العرب في العصور القديمة - دار النهضة العربية بيروت ط2 1979 ص370 يختصر إلى يحيى: العرب في العصور القديمة.

وفي بعض الأحيان تقبل القبيلة دية عن القاتل تختلف باختلاف المكانة ولو أنها عند عامة القبائل مائة من الإبل، ودية الملوك والأشراف تصل إلى ألف بعير، ودية الصريح ضعف دية المولى أو المستحق^(١٤)، فإن دل هذا على شيء فإنه يدل على التمايز الاجتماعي بين فئات المجتمع.

أضف إلى ذلك اقتران فكرة الثأر بأوهام، فقد آمنوا أنه إذا قتل قاتل خرجت من رأسه هامة تصيح على قبره إذا لم يدرك بثأره: اسقوني فإني عطش: فإذا أدرك بثأره سكنت^(١٥).

كان النظام القبلي دعامة للحياة السياسية في الممالك والإمارات التي قامت في جنوب جزيرة العرب، وفي حواضر الحجاز، وفي الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق. (ينظر مصور 3-8)

فلكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بينهم، ويشترطون في اختياره ست خصال منها الشجاعة والجد، والغيرة، وسعة الثروة وسداد الرأي وكمال التجربة مع كبار السن^(١٦).

هذه القبائل المتعددة كالدول على أنماط ودرجات، فالقبائل التي تستقل بنفسها، وتستغني عن غيرها. دعيت الأرحى^(١٧) وهي ست قبائل "بمضر منها اثنتان ولربيعه اثنتان، ولليمن اثنتان، واللتان في مضر: تيم بن مرة، وأسد بن خزيمه. واللتان في اليمن، كلب بن وبرة، وطلي بن أدد^(١٨)."

والقبيلة التي تفرعت منها قبائل وبطون واستقلت بأسمائها، وصارت كأنها جسد قائم، وكل عضو مكثف باسمه معروف بموضعه أطلق عليه لفظ الجمجمة^(١٩).

وقد قيل إن جماجم العرب ثمان "فاثنتان منها في اليمن، واثنان في ربيعة وأربع في

(1) الاصبهاني: الأغاني ج3 ص65، الألويسي: الأرب ج3 ص22 وما بعد شريف: مكة والمدينة ص36

(2) الاصبهاني: الأغاني 3/105 حاشية، الألويسي: بلوغ الأرب ج2 ص310

(3) بلاشير (د.ر) تاريخ الأدب العربي - ترجمة إبراهيم الكيلاني - دار الفكر ط2 دمشق 1984 ص40 حتي:

تاريخ العرب ص57: شريف: مكة والمدينة 25 حسن: تاريخ الإسلام ج1 ص62

(4) لسان العرب مادة رجا، جواد: المفصل ج4 ص332

(5) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص289

(6) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص289

مضر^(لج).

وأما القبائل التي تجمعت على نفسها فلم تدخل مع غيرها في أحلاف قبلية، فقد سميت الجمرة، والجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل^(ب).

وجمرات العرب أربعة بنو نمير بن عامر بن صعصعة، بنو الحارث بن كعب، بنو ضبة، كعب بن بغيض^(ت). فطُفِئَت جمرتان بنو ضبة لأنها صارت إلى الريباب فحالفتهما، وبنو الحارث لأنها صارت إلى مذحج فحالفتهما^(ي).

ومن القبائل الرضفات وهي أربع عرفت بشدتها وبأسها كشيبيان وتغلب وبهراء وإياد^(س).

أما سليم وهوازن من قيس عيلان، وغلطفان وأعصر ومحارب بن خصفة، فقد عرفت بأثافي العرب^(ش). والأثافي العدد الكثير والجماعة من الناس^(ز).

والجدير بالذكر أن القبيلة ضمت الكثير من العناصر كالصرحاء، وهم الفئة الممتازة التي لها الصدارة في القبيلة، والمركز المرموق، وهم أصل القبيلة الذين يجمعهم نسب واحد ودم مشترك لم تلحقه هجنة^(ح).

والموالي هم أنواع: مولى اليمين الحليف، ومولى الدار الجار، ومولى النسب ابن العم^(ق). ودخل في إطار الموالى العتقاء وهم الذين كانوا في الأصل عبيداً ثم أعتقوا، وارتبطوا بالسيد برابطة الولاء^(لج).

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص289

(2) لسان العرب مادة جمر: جواد: المفصل ج4 ص332

(3) ابن حبيب: المحبر ص234 ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص318 البغدادي: سبائك ص172 لسان العرب مادة جمر تاج العروس مادة جمر جواد: المفصل ج4 ص332-333

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص318-319 البغدادي: سبائك ص172 جواد: المفصل ج4 ص333

(5) ابن حبيب: المحبر ص234، جواد: المفصل ج4 ص334

(6) ابن حبيب: المحبر ص234، جواد: المفصل ج4 ص334

(7) لسان العرب: مادة أثف.

(8) الهجين ابن الأمة لسان العرب مادة هجن

(9) الضبي (المفضل بن محمد بن يعلى) المفضليات - مكتبة المثنى - بغداد - مطبعة الأباء اليسوعيين - بيروت 1920 ص654 يختصر إلى المفضليات، جواد: المفصل ج4 ص368.

(10) لسان العرب مادة ولي، ضيف (شوقي) العصر الجاهلي - دار المعارف بمصر ص67 يختصر إلى ضيف:

والرقيق وهي الفئة الدنيا في القبيلة وعلى نوعين إما رقيق أبيض وإما رقيق أسود لا يملكون أية وسيلة للإنتاج، بل هم أنفسهم مملوكون يعملون في خدمة الأرستقراطية البدوية والحضرية وأثرياء التجار.

فساء وضعهم وفرض عليهم من الواجبات ما أرهق كاهلهم، وأهدر إنسانيتهم، فقد كانوا يبتاعون ويتهادون ويتوارثون مثل سائر الأمتة، وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس^(٤٤).

وليس لهم الحق في الزواج إلا بإذن السيد على أن يتزوج عبدة مثله، ولم يكن من السائع أن يقتص حر بعبد فإذا قتل أحدهم عبداً فلا يجوز أن يقتل به ويقتل العبد بالحر طبعاً^(٤٥).

كانت مصادر الرقيق في الجاهلية من السبي والنخاسة وعبودية الدين، وقد عرف تجار الرقيق بأسم النخاسين كان منهم عبد الله بن جدعان^(٤٦)، فمع نمو الحركة التجارية واستفحال الربا والاستثمار الربوي كان عدد العبيد يتزايد، فقد استخدموا في أعمال إنتاجية، وفي أنواع الحرف، وكمحاربين لصالح أسيادهم وكحماة وحراس للقوافل التجارية الخاصة بالأغنياء، وفي أعمال الخدمة البيتية في منازل أثرياء التجار والمرابين ووجهاء القبائل.

ومن عناصر القبيلة المستلحقون حيث كانت القبيلة تستلحق شخصاً ما بنسبها، وتجعله في حمايتها ورعايتها، وأستلحقه أي ادعاه، والملحق الدعي والملصق^(٤٧)، أي المنسوب إلى غير أبيه وعشيرته^(٤٨).

وضمنت القبيلة بعض الأفراد بالجوار، وامتدحت العرب بالذب عن الجار، وقالت فلان

العصر الجاهلي، سالم: تاريخ العرب ص 436

(1) خليل (أحمد خليل) مضمون الأسطورة في الفكر العربي - دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط1 حزيران 1973 ص 83 يختصر إلى مضمون الأسطورة في الفكر العربي.

(2) دروزة (محمد عزة) عصر النبي وبيئته قبل البعثة ط2 دار اليقظة العربية بيروت 1964 ص 383 يختصر إلى دروزة عصر النبي.

(3) تاج العروس مادة نخس، حسن (إبراهيم حسن) النظم الإسلامية ط1 مكتبة النهضة المصرية 1939 ص 360 يختصر إلى حسن النظم الإسلامية.

(4) لسان العرب مادة لحق.

(5) لسان العرب مادة دعا.

منيع الجار، حامي الزمار كقول الشاعر^(١):

هم يمنعون الجار حتى كأنه كشيبة^(٢) زور بين خافيتي نسر

وكانت المواخاة كعقد بين الأفراد أو بين الجماعات كالعشائر والقبائل وهي تدعو إلى التناصر والموازرة والمساعدة.

قال تعالى: ((هارون أخي أشدد به أزري^(٣))) وهي تضارع الأخوة الطبيعية القائمة على علاقة الدم وتصبح هذه مؤشراً نحو التماسك^(٤).

وضمت القبيلة الخلعاء والصعاليك، فإذا سلك الفرد سلوكاً شاقناً يسئ إلى سمعة القبيلة، ويجلب عليها العار نبذته القبيلة، وأخرجته منها مفضلة التضحية بفرد بدلاً من جماعة^(٥). وعندئذ يلجأ إلى قبيلة أخرى فيعتبر جاراً لها أو مولى من مواليتها، أو يلجأ إلى الصحراء ويعيش على قائم سيفه وحد نصله، ويصبح صعلوكاً من صعاليك العرب، أو مغامراً ليتخلص من شقاء الفقر، فالصعلوك الفقير الذي لا مال عنده ولا اعتماد له على شيء أو أحد يعينه على شق طريقه في الحياة^(٦).

خواص العرب

عاش المجتمع العربي حياة بدوية باستثناء سكان اليمن المتحضرين، وبما أنه تم التعرف على النظام البدوي، فلا بد من التعرف على النظام الآخر المتحضر.

وقد توضح أن المعينيين مؤسسو التمدن في اليمن حيث قسمت اليمن إلى أربعة وثمانين مخلاًفاً^(٧).

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج1 ص121-122.

(2) كشيبة: مجتمعة لسان العرب مادة كشب

(3) سورة طه 30-31

(4) يحيى: العرب في العصور القديمة ص369

(5) لسان العرب مادة خلع، برو: تاريخ العرب ص260

(6) لسان العرب مادة صعلك، خليف (يوسف) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر 1959 ص21 يختصر إلى خليف: الشعراء الصعاليك.

(7) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت ج1 ص201 يختصر إلى تاريخ اليعقوبي، المقداري (درويش) تاريخ الأمة العربية، مطبعة الحكومة بغداد

عرف رئيس المخلاف باسم قَيْل أو أمير^(١٤)، وكان المخلاف مؤلفاً من عدة محافد ويعرف رئيس المحفد باسم ذو وجمعها أذواء أي مشايخ والمحفد مؤلف من قصور أشهرها غمدان وناخذ وصرواح وسلحين وأظفار وسبأ^(١٥).

وفيها قال الشاعر:^(١٦)

هل بعد غمدان أو سلحين من أثر وبعد بينون يبني الناس بنيانا

إذا لا نظير لهذه القصور في عظمة البناء وفخامته، يقال: "تفاخرت الروم وفارس بالبنيان، وتنافس فيهما، ففجزوا عن مثل غمدان ومأرب، وحضرموت وقصر مسعود، وسد لقمان وسلحين وصرواح، ومرواح وبينون، وهندة وهنيدة، وفلتوم^(١٧)".
ولعل قصر غمدان أقدمها وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتاً أبدع الإخباريون في وصفه وتصويره^(١٨) قال الشاعر:^(١٩)

وغمدان الذي حدث عنه بنياه مشيداً في رأس نيق

بمرمره وأعلاه رخام حمام لا يغيب بالشقوق

مصابيح السليط يلحن فيه إذا يمسي كتو ماض البروق

فأضحى بعد جدته رماداً وغير حسنه لهاب الحريق

وأقدم الدول العربية التي قامت في اليمن الدولة المعينية ورد ذكرها في المصادر

1939 ص 14 يختصر إلى مقدادي تاريخ الأمة العربية.

(1) والمخلاف والمخاليف بمنزلة الكور والرساتيق ياقوت مادة مخلاف، ولكل مخلاف اسم يعرف به وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمرته فغلب عليه اسمها. ياقوت ح 1 ص 37 مقدمة.
الأقبال ملوك باليمن دون الملك الأعظم وأحدهم قيل يكون ملكاً على قومه ومخلافه ومحجره. لسان العرب مادة قول.

(2) زيدان: تاريخ العرب ص 148، الهمداني: الصفة ص 365

(3) ابن الفقيه الهمداني: كتاب مختصر البلدان ليدن 1885 ص 35 يختصر إلى ابن الفقيه الهمداني مختصر البلدان وينظر ياقوت معجم البلدان مادة غمدان.

(4) ابن الفقيه الهمداني: مختصر البلدان ص 34

(5) الهمداني: الإكليل 3/8 - 21.12

(6) ياقوت: معجم البلدان مادة غمدان

اليونانية والرومانية، أما المصادر العربية فلم تذكر غير بلديتي معين وبراء قش كونهما محفدين من محافد اليمن وقصورها القديمة^(٤٤).

ظهرت الدولة المعينية في الجوف أي في المنطقة السهلة الواقعة بين نجران وحضرموت^(٤٥)، واشتغل سكانها بالتجارة وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ولم يلبث نفوذهم السياسي أن وصل إلى شمال الحجاز، فخلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب واقعاً في يد السبئيين والمعينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية - وكان السبئيون والمعينيون أبناء جنس واحد. ولكنهم كانوا يتنافسون السيادة لا في بلادهم فحسب بل في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية أيضاً.

فكانت تقيم في كل واحة من الواحات المهمة التي تقع على طول الطريق التجاري جالية من عرب الجنوب، وكان يقيم مع هذه الجالية مقيم من أهل الجنوب كذلك، وكانت مهمته الإشراف على ملوك الإقليم ورؤسائه ومراقبتهم لكي لا يفعلوا شيئاً من شأنه أن يضر بمصالح سيده السبئي أو المعيني الذي قد يكون على رأس المملكة الجنوبية السبئية أو المعينية تبعاً لاختلاف العهود^(٤٦).

وسكن في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن إلى الجنوب من بلاد السبئيين وعلى تخوم حضرموت القتبانيون^(٤٧) فقد ذكر ياقوت أن قتبان موضع في نواحي عدن^(٤٨). وبالطبع أفاد القتبانيون من موقع بلادهم الجغرافي بجوار باب المندب اشتغلوا بالتجارة وجنوا من وراء ذلك أرباحاً ضخمة، وأصبحت لهم قوة عظيمة كان لها أعظم الأثر في القضاء على نفوذ المعينيين^(٤٩).

(1) الهمداني: الصفة ص 265، الإكليل 105/8.

ياقوت: معجم البلدان مادة معين

(2) سالم: تاريخ العرب ص 120

(3) موسل (10) شمال الحجاز نقله إلى العربية عبد المحسن الحسيني مؤسسة الثقافة الجامعية ص 1 -

يختصر إلى موسل - شمال الحجاز.

(4) سالم: تاريخ العرب ص 125

(5) ياقوت: معجم البلدان مادة قتبان

(6) سالم: تاريخ العرب ص 128

وإلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب تقع حضرموت " ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحفاف ^(١) " قامت فيها دولة كانت تعاصر دولة معين وسبأ وقتبان ثم اندمجت فيما بعد في مملكة سبأ وريدان على أيام شمريه عرش الذي تلقب بلقب ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وميفعة ^(٢).

واستغل السبئيون ضعف المعينيين ووسعوا نفوذهم إلى أن قضوا على الدولة المعينية وأقاموا دولتهم على أنقاضها واشتغلوا بالتجارة فنمت دولتهم وازدهرت إلى أن قام نزاع حول العرش السبئي كان له أعظم الأثر في تخریبها ودمارها، فأفاد من هذا النزاع الحميريون إلى أن تمكنوا من انتزاع العرش ^(٣). (ينظر مصور رقم 6 - 7)

برز الحميريون على مسرح الأحداث في بلاد العرب الجنوبية وانقسم عهدهم إلى عهدين الأول من 115 ق.م حتى 300 م مؤسس هذه الدولة الشرح يحضب ملك سبأ وذو ريدان ^(٤).

وقد كان لهذه الدولة شأن يذكر في عالم التجارة الأمر الذي جعل الرومان يسيرون حملة اليوس جالوس سنة 24 ق.م للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها ملوك سبأ واستغلال ثروات اليمن ^(٥).

إلا إن هذه الحملة باءت بالإخفاق واقتصروا الرومان على السيطرة على الطريق التجاري البحري وإقامة علاقات ودية مع حكومة الحبشة، وقد أضر ذلك باقتصاديات اليمن أضراراً بالغة وبدأ الضعف يدب في كيان دولة سبأ وذو ريدان ^(٦). وكان آخر ملوكهم ناشر النعم أو ناشر ينعم ^(٧).

ويبدأ العهد الثاني للدولة الحميرية من 300 م - 525 م لقب ملوكها بملوك سبأ وذو

(1) ياقوت: معجم البلدان مادة حضرموت

(2) الهمداني: الإكليل 94/8

(3) سالم: تاريخ العرب ص 139.

(4) سالم: تاريخ العرب ص 140

(5) حتي: تاريخ العرب ص 76 - 77، جواد: الفصل 417/2 وما بعد سالم: تاريخ العرب ص 141

(6) سالم: تاريخ العرب ص 142

(7) الأصفهاني (حمزة بن الحسن) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ص 100 يختصر إلى الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء وينظر أبي الفدا (عماد الدين إسماعيل) المختصر في أخبار البشر مكتبة المتنبي القاهرة ج 1 ص 67، يختصر إلى أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر.

ريدان وحضرموت ويمنات^(٤٤) مؤسس هذه الدولة شمر يهر عش أو تبع الأكبر الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله: ((أهم خير أم قوم تبع الذين من قبلهم أهلكناهم أنهم كانوا مجرمين^(٤٥))) والملاحظ أن هذه الفترة هي التي تدخل ضمن الدراسة هذه.

كان لهذا الملك أو التابع أعمال حربية منها أنه سير حملة عسكرية إلى جملة قبائل عسير وتهامة حتى ساحل البحر فانتصرت الحملة عليها وتعقبت القبائل في البحر وأنزلت بها خسائر فادحة^(٤٦).

أدت فتوحات شمر يهر عش في هذه الأراضين التي بلغت سواحل البحر الأحمر إلى دخوله في نزاع مع الحبش الذين كانوا يحتلون مواضع من الساحل ويؤيدون بعض القبائل لوجود أحلاف عقدوها معها^(٤٧).

وتبين من نص النمارة أن ثمة حروباً نشبت بين شمهر يهر عش وأمري القيس كان النصر فيها لامري القيس^(٤٨).

مما يعني أن جزيرة العرب كانت في أوائل القرن الرابع للميلاد ميداناً للتسابق بين رجلين قويين.

غزا الأحباش اليمن في عهد خليفة شمر يهر عش يريم يرحب كرد فعل للغزو للذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة^(٤٩). ففر ملك حمير وأبناؤه إلى يثرب^(٥٠). مركز اليهودية في الجزيرة العربية، وتأثروا باليهودية في الوقت الذي كان يعمل فيه الأحباش والبيزنطيون على نشر الدين المسيحي^(٥١). وسيبحث هذا كله في فصول قادمة.

وانشغل ملك الحبشة بإخماد بعض الثورات في مملكته، فتمكن اليمنيون من استرداد البلاد وطرد الأحباش والعودة إلى البلاد ناشرين الدين اليهودي، وفيما بعد نجد

(1) جواد: المفصل ج2 ص548، حتى: تاريخ العرب المطول ص79، حسن: تاريخ الإسلام 28/1

(2) سورة الدخان الآية 37.

(3) جواد: المفصل 541/2 ص542، سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص145.

(4) جواد: المفصل 542/2

(5) ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام ص33، وينظر: جواد: المفصل 549/2

(6) سالم: تاريخ العرب ص147

(7) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي 97/1، سالم: تاريخ العرب ص147

(8) ينظر في فصل سياسة الأحباش في شبه جزيرة العرب، وفصل الديانات

غزواً حبشياً ثانياً لليمن وسقوط الدولة الحميرية الثانية في يد الأحباش^(١). ومن بعدهم
الفرس إلى أن قام الإسلام^(٢).

توضح حسب ما جاء من أن المعنيين مؤسسو التمدن في اليمن، وأن قيام الدولة خطوة
متقدمة بالنسبة إلى نظام القبيلة ففي ظلها توافرت إمكانيات مالية وبشرية وإدارية وفنية
لتشجيع التجارة وتنمية الزراعة، وتنفيذ بعض المشاريع العمومية الكبرى الإنتاجية
والخدمية وتنفيذ شبكة واسعة من السدود لحفظ المياه.

أضف إلى ذلك أن قيام الدولة ضرورة تاريخية لنظام طبقي يقوم على الملكية الخاصة
والاستقلال والتفاوت في توزيع الثروة والتمايز الاجتماعي لحماية هذا النظام وتعزيزه، فقد
عملت الأسر المالكة على تنمية مصالحها عن طريق الاستيلاء على أراضي ومواشي
وممتلكات الأقوام والقبائل المعادية لها أو المتمردة على سلطانها، وفرض الجزى عليها مما
أثر على اقتصاد البلاد وأهاليها ومدنها وقراها وأضعف الدولة وأطمع الغزاة الأجانب
بأراضيها وثرواتها.

وفي أطراف المنطقة الشمالية قامت إمارتا الغساسنة والمناذرة اللتين شغلتا دوراً هاماً
في الصراع بين فارس وبيزنطة، وكلاهما من القبائل التي هاجرت على أثر خراب سد
مأرب^(٣). ينظر مصور رقم (3- 8)

سكن قسم من الغساسنة باليرموك والجولان، وغوطة دمشق وأعمالها، وسكن
قسم آخر بالأردن من أرض الشام^(٤).

أول ملوك الغساسنة جفنة بن عمرو مزيقياء، وآخرهم جبلة بن الأيهم^(٥).

بينما أقام المناذرة على شاطئ الفرات الأيمن على مقربة من الكوفة^(٦)، أول

(1) ينظر في فصل سياسة الأحباش في اليمن.

(2) ينظر في فصل سياسة الفرس في الجزيرة العربية.

(3) المسعودي: مروج الذهب 2/170 وما بعد

(4) المسعودي: مروج الذهب 2/174. جميلي: محاضرات في تاريخ العرب 130 عاقل: تاريخ العرب 154.

(5) أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر 1/72 - 73

(6) سيديو (أ) تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر 1948 - دار إحياء الكتب العربية ص42 يختصر إلى

سيديو: تاريخ العرب، عاقل: تاريخ العرب ص159، جميلي: محاضرات في تاريخ العرب ص133، حسن:
التاريخ الإسلامي ص62.

ملوكهم مالك بن فهم^(١٤)، وآخرهم المنذر المغرور^(١٥).

وقامت في وسط الجزيرة إمارة كندة تحت حكم زعيمها حجر آكل المرار^(١٦). وكان لها دور هام في الصراع حول الجزيرة العربية. وقد خضع لها الكثير من القبائل العربية الشمالية.

وهكذا فالممالك العربية التي عرفت البِلاد كانت في معظمها من أعمال العرب الجنوبيين، أو عرب اليمن سواء كانت في جنوب الجزيرة أو في شمالها.

وكان العرب أقساماً الأول ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى سلطان أعظم منهم، والثاني ملوك متوجون لكنهم في الحقيقة غير مستقلين، وقسم رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز، إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج فالملوك المتوجون ملوك اليمن.

والجدير بالذكر أن العرب على عكس ما يظهر من أنهم كانوا يحيون حياة منعزلة في بواديهم وصحراواتهم، فقد عرفوا حياة الحضارة المفتحة على العالم الخارجي بفضل العلاقات التجارية الواسعة الكبرى، وبفضل العلاقات السياسية والحربية مع الدول العظمى التي أحاطت ببلادهم.

ولعل عرب الحجاز لم يعرفوا الممالك والدول مثل إخوانهم في اليمن والعراق والشام لأن محافظتهم على عروبتهم وبدائوتهم وما تمثله من الصفات والسجايا هي التي ميزتهم على إخوانهم الذين أصابتهم حضارة الفرس والرومان.

(1) تاريخ اليعقوبي: 1/203-204، أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر 1/71 - 72

(2) عاقل: تاريخ العرب ص188.

(3) جانار (اولندر) ملوك كندة - ترجمة عبد الجبار المطليبي - المكتبة الوطنية بغداد 1973 ص70 يختصر إلى جانار: ملوك كندة.